A D H A M   A B O U D Y

أدهم العبودي

مَعشَرُ الجِنِّ

المدينة التي تخشى المغيب

دار الرسم بالكلمات

أدهم العبودي



أسطورةٌ أولَى

المدينةُ التي تخشَى المغيب

رواية

معظـم هــذه الأحـداث جـرَى بالفعـل، وشـهده النّـاس بأعينهـم وأصبـح خرافـات تتناقلهـا الأجيـال جيـلًا بعْـد جيـل، جـرتْ الأحـداث تحديـدًا في وادي «القرنـة» بمدينـة «الأقـصر»؛ الـذي يقـع بـين المقابـر الفرعونيّـة المحفـورة في بطـن الجبـل، والمعابـد الجنائزيّـة التـي تطوّقـه.

ولـكي تسـتقيم هـذه الأحـداث، كان لا بـدّ مـن بعـض الخيـال.

مَـا قَبْل المعرَكة

باستخفافٍ، ظلّوا يتجَاوبون مَعْ مِثْل هذه الخُرافات، فيما قبْل تلك اللّيلةِ، التي لَنْ تَسقط مِنْ ذاكرتِهم، مهمَا أُسقِط.

ولو أقسَم آباؤهم، أو رواةُ النّوادِر والأعاجيبِ العجائز، إنْ حَلفوا بالأَيْمانِ وعلَى المصاحفِ والأناجيل، علَى الماءِ يَجمَد وعلَى الصّخر يلين، ولو جاؤوا بألفِ دليلٍ ممّا يقطع الجَدل بالبُرهانِ، علَى وقوعِ أحداثٍ مُشابهةٍ، في أزمنةٍ أخرَى، وأثناء مُصادفاتٍ مُغايرةٍ، ما صدّقوا، لولا أنّهم رأوا بأعينِهم، ما يستحيل أنْ يروه، حتّى عَبر كلّ الخيالات المُسرفة في الشّططِ والجنوحِ.

يحفظـون الحكايـات القديمـةِ، عـلَى ظهـرِ اليَـد، تربّـوا عليهـا، حكايـات الجـنّ والمَـردة وحـرّاس المقابـرِ وسـادة المعابـدِ والكيانـات المسـحورةِ والوحـوش، يسـمعونها منْـذ نشـأوا، منْـذ كانـوا صِغـارًا يسـخرون مِـنْ هـذه القصـص، فقـط كان آباؤهـم يخوّفونهـم بهـا، أو يـسَرُّون عَـنْ رتابـةِ الحيـاة، لكنّهـم ظنّـوا في اسـتحالةِ حدوثِهـا، إنّهـا حكايـات في نهايـةِ الأمـر، مجـرّد حكايـات متوارثـة، مُختَلقـة، يهـوّن بهـا النّـاسُ عَـنْ خشـونةِ معيشـتِهم، يجـوز أنْ تتداولهـا ألسـنتُهم في قعـداتِ الفُكاهـةِ والتّنـدّرِ، أو يَحشُـونَ بهـا فـرَاغ الأذهـانِ المُتعَبـةِ عَقـب كـدٍّ طويـلٍ يسـتَنزِف قواهـم، في الغيطـان والحقـول وعـلَى إسـفلت الشّـوارع المسـقِي بعرقِهـم، ثـمّ إنّ الأسـاطير لا تخـرج مِـنْ بـين صفحـات الكتـب، هكـذا، تتجـوّل بينهـم، تُرهبهـم، أبـدًا لمْ يحـدث، ولا أدرَكـوا حدوثَـه في ناحيـةٍ قريبـةٍ أو بعيـدةٍ.

غير أنّها خرجتْ.

بـدأ الأمـرُ بصاعقـةٍ، تـضرب في السّـماء، أفزَعهـم أزيزُهـا فاسـتيقظوا، خرجـوا إلَى الشّـوارعِ والذّهـولُ يكتنِـف إدراكهم بالأشـياء، لمْ يـرَ أحدُهـم صاعقـةً قبْـل ذلـك التّاريـخ، مدينتهـم دافئـة دومًـا، تقطِـن حاشـيةَ الجِبـال، آمنـة مِـنْ تقلّبـات الجـوّ، يخلـو طقسُـها مِـنْ أيّ غضـبٍ طـارئٍ.

وقفـوا يراقبـون بطـن السّـماء التـي تتفسّـخ وتتهـاوَى،

كأنّها شراذم مِنْ غيمٍ، وتَحدِف عليهم المَطرَ سيلًا مِنْ دِماءٍ، والثّلجَ أحجارًا، والسُّخط شرارات، تمامًا كالنّجوم المُنفلتة مِنْ سلاسلِها، وبينما يراقبون، احتَموا بأسقف العِشش وجدران البيوت وفروع الشّجر ومظلّات النّخيلِ التي يتدلّى منها التّمر الذي تفحّم في سباطاتِه، وشاهدوا بأعينِهم هيجانَ السّديمِ في الأفقِ.

كان الضّوءُ يهبِط متراصفًا في بهرجةٍ بأحشاءِ معبد «الكرنك»، عند البحيرةِ المقدّسة، كأحجارٍ برّاقةٍ، ومِنِ زوايا البحيرة الأربع، تدفّق عمودٌ إلَى الأعلى، عمود مِنْ ماءٍ، اندفع يتراقص، كأنّ نغمًا خفيًا يحكم مسارَه، وكانوا قدْ اعتقدوا، قديمًا، أنّ منسوب البحيرة ثَبت، لا يرتفع ولا ينزِل، كأنّ سكّان المعبد القُدامى حصّنوه بالتّمائمِ السّريّةِ وحوّطوه بالتّعاويذ والطّلاسمِ، علَى أنّ أعينهم صَعدتْ مَع العمود الذي انفجر منطلقًا إلَى حوافّ السّماء فجاوزها، غابتْ حواسُّهم وتسمّروا يشهدون الأسطورة، تلجّموا جميعًا، كأنّما ينتظرون نهايةَ تلك الأحداث التي لمْ تمرّ بها مدينتُهم قبْل ذاك.

العمود يشفِط ماء البحيرة ويسبح به إلَى هناك، إلَى حيث لا يبلغ بصر، تعوم فيه ومضات متألّقة، كأنّها أسماكٌ نورانيّة، يتناثر علَى رؤوسِهم الرّذاذُ، يُنعِش وعيَهم، تقشعرّ أطرافُهم، فتبدأ ألسنتهم ترطِن، تتساءل، يحاولون فَهم المسألةِ بالفراسةِ والتّكهّن والظّنون، عند

أنْ راح مشـايخُهم يبسـملون ويسـتعيذون باللـه.

يتجـلّى في منتصـف ليلِهـم نـورٌ، يكشِـف لأبصارِهـم الوقائـعَ المكتـوب لهـم أنْ يشـهدونها وإنْ أنكروهـا قديمًـا، كانـوا واقفـين متفرّقِين علَى جانبـي طريـق الكِبـاش، عندمـا شرعـتْ الكِبـاش في التّحـرّك، راحـتْ تنفصِـل عَـنْ قواعِدهـا، تشـبّ، تنفـض عنهـا غبـار الأزمنـةِ طيلـة الرّقـود في الهيئـات الحجريّـةِ، تخطـو ببـطءٍ، تزلـزل خطواتُهـا الأرضَ تحـت أقدامِهـم، تسـتدير متّجهـةً إلَى قلـب المعبـد، قطعـان مِـنْ الكِبـاش تصـفّ بعضهـا بعضًـا وتتقـدّم في طوابـيرٍ منتظمـةٍ، وكلّـما انسـلختْ عَـنْ هيئاتِهـا القديمـةِ اكتسـتْ بالفـروِ الدّاكـن، وهـي تدخـل إلَى المعبـدِ.

يتبـدّل لـونُ الـتّراب أسـفل منهـم، يصبـح علَى لـونِ النّيـلِ، أزرَق، مرتّقًـا ببقـع الـدّم، تغطـس أقدامُهـم في بِـرك الدّمـاء، ثـمّ يتقهقـرون إلَى حيـث حيّـز الجـدرانِ، يوغلـون في هلعِهـم، لكـنّ الجـدرانَ نفسَـها ازرقّـتْ، وأوصـدتْ أبـوابُ بيوتِهـم فاحتُجـزوا في الخـارجِ، قُضبِنـتْ بأسـيجةٍ كهربائيـة، كأنّمـا مسـتمدّة مِـنْ الصّاعقـةِ التـي تـزوم أعلاهـم، كأنْ قُـدّرَ لهـم ألّا يهربـوا مِـنْ معاينـةِ الأسـطورةِ، قسرًا، وإنْ ارتَعبـوا، أو طمِحـوا أنْ يصبـح كلّ هـذا مجـرّد حلـمٍ، لكنّهـم سـيَبقون خـارجَ بيوتِهـم حتّـى مشـيئة مُلتبـس عليهـا.

الكِبـاش تتمـشّى علَى مهـلٍ في صفّـين متوازيـيْن، ومِـنْ

حولها تُستَنطق جدران المعبد، تلفَظ نقوشَها، تتجسّد النّقوش، حيوانات وخَدم وحرّاس وكائنات هجينة برؤوس طيورٍ وأجسامِ بشرٍ، علَى شكلِ الأطياف الدّخانيّةِ، وعنْد بهو الأعمدةِ تطقّ النّارُ، تقفز الرّسوم مشتعلةً ترافق الرّكب الأثريّ، يستقرّون جميعهم حول البحيرةِ، يركعون في دائرةٍ يتحلّقون عمود الماء الّذي يهطل إلَى أعلَى.

يسمعون الأصواتَ، أصوات ترانيمِ وغناءٍ، علَى دقّ الدّفوف وقرَع الطّبول، كانتْ تصدر مِنْ داخل المعبد، لكنّهم لا يعرفون موقعها بالضّبطِ، رنينُها في آذانِهم يدوّي، صاخبًا، يسدّون آذانَهم وترجف أبدانُهم، تسرِي فيها رعداتٌ متتاليةٌ، لا يسيطرون عليها، كأنّما شيءَ لهم أن يرقصوا علَى نغمِ الأصوات، بلا إرادةٍ، دونما حيلةٍ، وفي أنوفِهم تسكن روائحُ بخورٍ، لمْ يشمّوها مِنْ قبْل، ولمْ تعرّف إليها الحواس، بلْ استنشقوها فداختْ أدمغتُهم.

السّماءُ يُبطّط طرفاها وينبعجان، تبدو تقوّستْ، يلتفّ طرفاها إلَى أسفل ويُربَطان في بعضِهما البعض، يتضفّر الطّرفان، ينعقدان، فتبدو الأرض تكوّرت بهم، رخوة تحت أقدامِهم، فتساقطوا فوق بعضِهم، محمولين داخل أسطوانةٍ مستديرةٍ، أُظلِم علَى أبصارِهم داخل الدّائرةِ، ما عادوا يرون أنفسَهم، كلّ ما يُسمَع الآن شهقات النّساء، وتضرّع الرّجال، والصّراخ، والنّواح.

مِنْ صدر العمودِ، مِنْ جوفِ المعبدِ، تئزّ شرارات، ينفرج العمود عَنْ مركبٍ ذهبيّةٍ تخرج والماء يتقاطر مِنْ مجاديفها، يقف فوقها عملاقٌ مفتول العضل، بصرُه مستقيم، لا تتحرّك عيناه لا يسارًا ولا يمينًا، في يدِه حِزمةٌ ضوؤها يتقطّع، بدثٌ تخبو، وعلَى رأسِه تاج بشكلِ صولجان، له جناحان مضمومان إلَى ظهرِه، بينما جسمُه يتألق بلونِ الذّهب، تبزغ به المركب مِنْ قلبِ العمود فيتبعه الكباش والحرّاس والخَدم، تسبح حولهم الرّموز التي كانت فوق الجدران، تسبح متلألئةً، تعوم المركب في الهواءِ، محمولةً علَى ضبابٍ وسحبٍ.

يمدّ العملاق ذراعيه جانبًا، ومِنْ حوافّ الأفق تطير أسراب ذبابٍ ونحلٍ وفراشاتٍ، تلتفّ حول ذراعيه في مساراتٍ دائريّةٍ، تطنّ، تتحرّك الحشرات وفقما يحرّك ذراعيه، ومَعْ حركتهما، تنحدر الصّاعقةُ مِنْ السّماءِ، تنحدر في جديلةٍ ضوئيةٍ، تقعقع، يلمّها في قبضةِ يدِه، تمتزج بالحِزمةِ التي يُمسكها، يفتح صدرَه، كان صدرُه أجوَف، يضع الصّاعقة بداخلِ صدرِه، مكان القلب، يتشكّل قلبُه مِنْ جديدٍ، يتشكّل مِنْ ضوءٍ وبرقٍ، يتوهّج، ينبض بالطّاقةِ، وفيما ينبض قلبُه، تُكتَسى ملامحُه بالحياةِ، فيمتّشِق نفسَه فاردًا جسمَه، كأنّه يزهو بما استعاد.

طرفا السّماء الملفوفان تحت الأقدام ينفرطان،

فيُمكن لهم، وقدْ شعّ الضوء على أعينِهم ثانيةً، أنْ يتبعوا المركبَ، وهي تطوّف فوق رؤوسهم، تسبح بلا ماءٍ، طولُها كشعاعٍ هاربٍ مِنْ السّماء، وعرضُها بعرضِ مدينتِهم.

المركب تجتاز النّهر، تبدو أمامهم، وهي تسبح هائمةً متجهةً إلَى البؤرةِ المفتوحةِ في السّماء بالضفّة الغربيّةِ، كطائرِ عنقاءٍ مجنّحٍ يعوم في الفضاءِ، تقطع الشّوارع، تطير بين البيوت، وقُرب الجبل الرّابض عنْد وادي الموتَى في البرّ الغربيّ، تنفتح بوّابةٌ، فيما بين التّمثالين الحجريين، اللّذين أفسحا لها طريقَ العبور.

المركبُ تدلف إلَى داخلِ البوّابةِ، تنغلق عليها، ثمّ يسكن كلّ شيءٍ علَى الضّفاف، بغيابِ المركبِ داخل البوّابةِ، مُجدّدًا.

يزول أثرُ الأسطورةِ مِنْ واقِعهم، بلْ بدا أثرًا عارضًا استثنائيّ الحدوث، إنّما لا ينسَونه، أجل تعود الأشياء إلَى صورتِها الأولَى، لكنّ الأثرَ لا يُفارق حكاياتهم.

ومهما أقسم آباؤهم، إذا جرَى الزّمن، لن يصدّق الصّغار، فيما يتبَع مِنْ أجيالٍ، حتّى يشهدوا بأعينِهم أسطورةً أخرَى مُماثلة، متجسّدة، حاضرةً، بحضورِ الإدراك.

(١)
مُقتطـعٌ مِنْ خرافةٍ عتيقةٍ

السُّكونُ كِسْوَةُ الشَّوارعِ في مثْل هذا الطَّقس، فيما بتضوّع النَّخلُ، المترامي في جِبَابِ الحقولِ المتطرّفةِ، كأنَّ الرّيحَ تُفاجِشهُ علَى خلوةٍ.

تلتجئ الكلابُ والقِططُ والثّعالبُ، وكلُّ حيوانٍ شرَد، إلى أطلال الجدرانِ المتهدّمةِ، خشيةَ الرّيحِ، عدا رجل وامرأة يرتقيان تبّةً رمليّةً، تتجمّد أنفاسُهما بخارًا، كلاهما منكمشٌ ببطانةِ حُضنِ الآخر، يتسنّدان أحدُهما على الآخر، يصعدان بحذرٍ، تتواثب مِنْ تحتِهما ذرّات الرّمل النّاعمة مَع كلّ خطوةٍ.

تفرّعاتُ الـذّروبِ مـن حولِهـما كلّها تنتهـي إلى آمـادٍ ظلاميّـةٍ تسـوّر معاصـمَ المدينـةِ، فـوق رأسـيهما إضـاءةٌ شـحيحةٌ منبعثـة مِـنْ عمـودٍ هزيـلٍ.

تبـدو انعكاسـاتُ الأشجارِ والتّلالِ والبيـوتِ عـلى أسـطحِ الطّرقـاتِ -الشـبيهة بالمرايـا- كظلالٍ مِـنْ دخـانٍ.

قـدْ هاجـتْ الرّيـحُ، عـلى غـير هـوادةٍ، واستأسَـد الصّقيـع، ومـا أعـدّ أهـلُ المدينـةِ أنفسَـهم، حسـبَهم يهـزؤون كلّـما ذُكِـرَ الشّـتاءُ: نحـن قرنـاءُ الشّـمس، وشـتاؤنا عذابُنـا نعـم، لكـنّ الشّـتاءَ نـادرٌ، ولا يبقَـى.

تغفــو الشّــوارع، لا بــشرَ في مُحيــط وديــان مدينــةِ «القرنــة».

يُقـتَرف الاختبـاءُ؛ في مثـل هـذه الأوقـات البّـاردة الاسـتثنائيّة مِـنْ زمـنِ المدينـةِ، إذا أقبَـل الشّـتاءُ عفيًّـا، كلـذّةٍ مُسـتباحة.

يستحسـنونه -الاختبـاء- كفعـلٍ آمـنٍ، يسلسـلون حياتَهـم في البيـوتِ، فيـما يتركـون -طوعًـا- أشـغالَهم وأرزاقَهـم في الخـارجِ، كأنّ المسـاءَ، في شـتاءِ المدينـةِ، للمـوتَى، يمارسـونه كيـف شـاءوا.

يتركـون اللّصـوصَ، والمَـردةَ المرصوديـن لحراسـةِ الأثـرِ،

والأشباحَ وعشائرَ الجنّ، علَى تنوّعها، يعيشون في الخلاء هناك.

يوقدون أفئدةَ بيوتِهم، بلْ يتحلّقون النّار سمرًا، مطمئنون أنّهم منعزلون عمّا يدور خارج ديارِهم، ويستأنسون بالحكايات والنّمائم والإشاعات، كأنّهم يسهرون يستدفئون بأسرارِ البيوتِ.

تبدو أعمدةُ معبد «هابو» -في ظلّ صهيلِ الرّيحِ القادمة تزعق مِنْ خلفِ الجبلِ- فيما لا يكاد البصرُ يصل إليها علَى تمامِه، تحديدًا في مثل هذا الأوان، والشّتاءُ يُثقِل الهواءَ، الذي يتحرّك باتّجاهيه، مِنْ وإلَى الصّدورِ؛ كرؤوسٍ معقوفةٍ بالضّبابِ.

عند أنْ تتكلّس الرّيحُ فوق الوجوهِ، الأهدابِ، علَى صخرِ الجبلِ، وحول أعناقِ المآذن والكنائس، والأبنيةِ والمعابدِ، القصيّةِ والدّانيةِ، يُصبح السّحابُ حينئذٍ أوشحةً قطنيةً، فروًا يكتّف حوافّ الأنظارِ، يصبح المشهدُ أبيضَ، والزّفيرُ دُخانًا يتراكم في تكاسلٍ، فلا يجرؤ نفرٌ أنْ يغامر ويهبط مِنْ دفءِ البيتِ إلَى قرصِ الشّوارع.

إلا رجلٌ وامرأتُه، أبْعَدُ ما ابتغتْ أنْ تُنجب ولدًا، بعد سنواتٍ مِنْ حِصارِ العُقمِ، وقدْ أوشكتْ أنْ تفقد الأملَ، ولمْ تكنْ تحتسب كرمًا، أو يمنّ عليها القدرُ بولدٍ، ولمّا كاد رحمُها ينقطع عطاؤه، استجاب الله رجاءها،

لذا؛ كان لزامًا أنْ توفي نذرَها الذي قطعته علَى نفسِها، وعاهدتْ به «الطّوّاف» الكبير؛ الجدّ.

كان يُمكن أنْ تنتظر لطلوعِ الشّمسِ، لولا إحساسها الملحّ بثمّة ما يُحدِق بابنِها، في هذه اللّحظةِ، تحديدًا، حيث وجدتْ اللّبن يُغرق صدرَها.

قامتْ مِنْ علَى السّريرِ، بهاجسٍ بدا فجائيًّا، كملسوعةٍ، كمخبولةٍ، مضتْ تمسح بكفّها اللّبن، وهي تقلّب في رضيعِها مخضوضةً، وإنْ حذّرها زوجُها:

- فلتُمهِلي نفسَكِ حتّى يتمّ شفاؤكِ!

- إنّه نذرٌ للتّحصينِ والبركةِ، جسم ولدك زكٌ، واشتدّ سعالُه، انظر إلى وجهِه المحمرّ! عسّس حرارتَه! معدته تلفظ اللّبن!

وراحتْ تقلّب في ولدِها بلوعةٍ.

- الحصانةُ بأمرِ اللهِ!

- والنّذرُ لله أيضًا، ألَا تذكر كلامَ أبيكَ؟! قبْل أسبوعٍ يمرّ علَى ولادتِه يا رجل نَزْقيّه.

- وهل مرّ أسبوع؟

حُسـم الأمر طالما الولد تقيأ الرّضعة.

انتظـري إذن كي أوقظ أبي ليرافقنا.

جسمُ الولد اشـتعل، لن ينتظر.

أردفـتْ ونهضـتْ، تماسـك جسـدُها رغـم خطـرِ الحركـةِ، أ ،انها زوجُهـا محـاذرًا ولـو لمْ يـزل يبرطـم في عتـابٍ، لفّحها ،الأرديـةِ الثّقيلـةِ فابتسـمتْ امتنانًـا، ثـمّ لفّـت رضيعَهـا، اا ـذي لمْ يُكمـل أيّامَـه الثّلاثـة، في بشـكيرين مِـنْ الصّـوفِ.

أصرّتْ علَى النّـزولِ إلَى المعبـدِ، ولـو أنّ الدّنيـا في الخـارجِ ـ اكنةٌ، هـذا السّـكون الكامـل كأنّ العـالمُ لـنْ يتحـرّك بعْـده، رمـى زوجُهـا علَى كتفيـه عباءتَـه وهبـط معهـا مجبـورًا.

أخـشَى علَى الولدِ في مثْل هذا البَرد!

- دعها على الله.

- أمـا كان لـكِ أنْ تصبري لحلـول الغَد، النّهارُ له عيون!

نَفَـسُ الولد ضاق، أخاف عليه.

- أخـاف عليـه أكـثر منـكِ، لكـن كلّ شيءٍ بالعقـل، الجـوّ ، رد يـا امـرأة!

لمْ تـردّ، فتحـت بـابَ البيـتِ، واسـتقبلتْ الهـواءَ عـلَى صدرِهـا، فارتعـدتْ، ضمّهـا زوجُهـا وهـو يُحكـم شـدّ الـرّداء:

- احترِسِي طيّب.

عـبر هـذا السّـكون، بينـما تصطـكّ أسـنانهما، دون إرادةٍ، كان الولـدُ قـدْ راح يسرسـع صُراخًـا، ألقمتـه ثديهـا تهدّئـه، وأسـدلتْ الحَـبرةَ عـلَى صدرِهـا، وضمّتـه تُدفئِـه.

صعـدا المنحـدر الرّمـليّ، بـدا الجبـلُ هاجعًـا أمامهـما، كان هزيـمُ الرّيـحِ يـدوّي مـن خلـف الجبـلِ، ومِـنْ بـين أعـواد الغـاب بالنّاحيـةِ الأخـرَى مـن الطّريـقِ ظهـرتْ العِشّـة، لمْ يكـن بـين بيتِهـما والعشّـة المحاذيـة للمعبـد أكـثر مـن مسـافةِ شـارعين يقطعانهـما بالعَـرضِ.

قالـتْ في نفسِـها أحتَمـل الـبرد ولا أحتمـل الخطـرَ عـلى ولـدي.

الرّيـحُ تمـرَح بـين ثقـوب جـدرانِ مخـازنِ غـلال سـيّدنا «يوسـف»، قبـاب المخـازن متقـشّرة، كأنّهـا صلعـاء، عندمـا مـرّا مِـنْ أمامِهـا اقشـعرّ بدنُهـا، أحسّـتْ أنْ حـرّاس الخزائـن مـا زالـوا يُبـاشرون عملَهـم في إحصـاءِ الـوارد والصّـادر مِـنْ الغـلال، وأنّ المخـازن مقفلـة عليهـم، منْـذ آلاف السّـنين، تُركـوا للحراسـةِ، لا يراهـم النّـاسُ وإنْ شـعروا بهـم.

أصدر جسدُها هـزّةً فجائيـةً، تطـرّف بهـا زوجُهـا بعيـدًا عن أفـواهِ المخـازن المسـتديرة، وهـو يدفـن رأسَـها في صدرِه، ويُسـدِل عليهـا عمامتَـه الثّقيلـة، بينـما كانـتْ عينـاه تراقبـان الفوّهـات المعتمـة، أحـسّ هـو الآخـر أنّ أناسًـا يتحرّكـون في الدّاخـل، أنّ جميـعَ الأشـغال التـي ذكرهـا التّاريـخُ لمْ تـزل سارية، تسـارعتْ خطواتُـه، يضعضـع، يتمتـم بشـفتيه يقـرأ القـرآن، ويدهــس بقدميــه الـرّوث والحشــائش والـتّراب المتراكـم عـلى جنـبِ الطّريـق وهـو يعـبر سريعًـا بـوازعِ الارتيـاب.

دلفـا مَـعْ المنعطـف المسـتدير باسـتدارةِ ضفّـةِ التّرعــةِ، رأسُ ورل تـبرز مِـنْ الحشـائشِ، يتفقدّهــما بعينيــه كأنّــه يستنكر خبلَهـما الـذي دفعهـما للخـروجِ في هـذا التّوقيـت، ثمّ سرعـان مـا يلـوذ بلجّـةِ الحشـائش لا يُبـالي بغـير الـدّفء.

مـرّا عـلى بضعـةِ بيـوتٍ غطّـوا نوافذَهـا بـورقِ الجرائـدِ والبطاطــين تحسّــبًا مِــنْ تــسرّب نفخــاتُ الرّيــحِ البّــاردةِ، كانــتْ بيوتًــا اشــتغل أصحابُهــا في صناعــةِ «الألباســتر»، بـدتْ تُشـبِه البيـوت الأثريّـة الواطئـة في عمـومِ بنائِهـا، تركـوا الأدوات وأكـوامَ الجـيرِ وكُتَـلَ الحَجـارةِ والتّماثيـل غير المكتملـة ملقـاةً أمـام أفـواهِ الأبـوابِ، كانـتْ حيطـانُ البيـوتِ ملطخّـةً بالرّسـومِ المصريّـةِ القديمـةِ المقلّـدةِ التـي بهتـت ألوانُهـا، وكان التّقليـدُ فقـيرًا مليئًـا بالعيـوبِ وعـدم التّناسـق.

يزعمـون أنّ قدمـاءَ المصريـين صـوّروا بالنّقـوشِ عـلى جـدرانِ معابدِهـم مـا عجـزتْ ألسـنتُهم عَـنْ وصفِـه مـن أسرارِ الـرّوح، تُـرَى أيُّ أسرارٍ يُمكـن أنْ تحملهـا روحُ ولدِهـا فيـما بعْـد؟!

بلهفـةٍ طرقـتْ العشّـةَ، اهتـزّتْ لمبـة الجـاز المُعلّقـة عـلى البّـابِ، نفخـتْ في صـدرِ ابنِهـا زفـيرًا سـاخنًا وهـي تدعـك صـدرَه، لمْ يطُـل انتظارهـما، أزاحـتْ البـابَ يـدٌ مرتعشـةٌ، بعْدهـا طـلّ وجـهُ امـرأةٍ عجـوزٍ، عقـدتْ حاجبيهـا، ركّـزتْ بعينيهـا فيهـما مسـتعلمةً، ثـمّ انبسـط وجهُهـا لمـا تعرّفـتْ عليهـما، فتحـتْ البـابَ لآخـرِه، وقالـتْ:

- تفضّـلا، يا هلا يا هلا..

دخـلا، أسرعـتْ العجـوزُ تُغلِـق البـابَ بعْدهـما، جلسـا حـول ركيـةِ نـارٍ، سرَى الـدّفءُ في جسـدِيهما، تناولـت العجـوزُ حطبًـا مـن كـوّةٍ في الجـدارِ وزكّـتْ بـه النّـارَ، اسـتُوقِدتْ أكـثر، رفعـتْ حافّـةَ البشـكيرِ عـن وجـهِ الولـد:

- ما شـاء الله، محروس بأمره.

قالـتْ الأمُّ متعجّلةً وهي تفرك بكفِها جسـمَ الولد:

- أسرِعي وحصنّيه يا شـيخة «ضيّ».

هدئي من روعِك.

يكاد الولدُ يفرفط مِنْ السّخونةِ!

تلقَفتـه مـن يدِهـا، كشـفتْ بطنَـه، غمسـتْ في سرّتـه إصبعها، فـرَج الولـدُ فمَـه يضحـك، ظلّـتْ تلاطفـه، جـاس ....يـه فيهـا عـلَى غـير ثبـاتٍ.

أراحتـه عـلى الكنبـةِ، تعكّـزتْ عـلَى عصـا ودخلـتْ إلَى ...ـن العشّـة، خرجـتْ بعْـد قليـلٍ وفي يدِهـا قـماشٌ وإبـرةٌ و . روسٌ مِـنْ طـينٍ وإنـاءٌ فخّـاريٌّ وهـي تبسـمل، نظـرتْ إليهـما تقـول محـذِّرةً:

هـذا الإنـاء فيـه خليـطٌ مـن المِسـك والزّعفـران ومـاء الورد ولبـان الذّكـر، قـدْ تضايقكـما رائحتُـه.

حطّـت الولـدَ عـلَى فخذِهـا بعْدمـا جلسـتْ جـوارَه، أعطـتْ في فمِـه شرابًـا مِـنْ زجاجـةٍ أولًا ونظـرتْ إليهـما:

- إنّـه حلف بـرّ دافئ كي يعقر معدته.

هـزّتْ أمُّـه رأسَـها تدعوهـا لـلإسراعِ واسـتكمال طقسِـها، فراحـتْ تتلـو:

- يـا قديـم يا دائم يا أحد يا صمد.

ثـمّ أمسـكتْ العـروس، مسـحتْ عليهـا بأناملِهـا، تعفّـرتْ، كـحّ الولـدُ، وثبـتْ الأمّ، لكـنّ الأبَ أجلسـها ثانيـةً براحتِـه يطمئنهـا.

بأسـنانِها المتهالكـةِ مضـتْ العجـوزُ تقطّـم القـماشَ، صـار فتائـلَ، فتحـتْ حشـيةَ الكنبـةِ، تناولـتْ رقعـةَ جلـدِ ماعـزٍ، ثـمّ بالخيـطِ والإبـرةِ راحـتْ تثقِـب الرّقعـة، غمسـتْ الإبـرة في الخليـطِ، ثـمّ كتبـتْ عـلى الرّقعـةِ «بسـم اللـه» خمـس وثلاثـين مـرّة، طبّقـتْ الرّقعـةَ مـع الفتائـلِ، وظلّـتْ تحيكهـم، ضفّرتهـم طوليّـا، أمسـكتْ الضّفـيرة وعقـدتْ طرفيهـا، صنعـتْ قِرطًـا مجـدولًا، ثـمّ قامـتْ إلى النّـارِ، طمسـتْ فيهـا الإبـرَةَ، وتركتهـا حتّـى وجّـتْ محمـرّة لحـدّ اللّمعـانِ، تناولتهـا بيدِهـا، مِـنْ النّـارِ، دون أنْ تكتـوي أو يحـترق جِلـد يدِهـا، تعـوّدا عـلى بركـةِ العجـوزِ، فلـمْ يندهشـا مـمّا أتـتْ.

غـزّت الإبـرةَ في أرنبـةِ أذن الولـدِ، لمْ يتألّـم، بـلْ طـاف فيهـا بعينيـه كأنّـه يسـتفهِم، ثـمّ رفـس بسـاقيه، ورفـع كفّـه إلَى وجهِهـا يناغيهـا.

ابيضّت عيناها وهي تقرأ علَى رأسِ الولدِ، وتخشّبتْ يدُها.

رتّلـتْ أسـماء اللـه مـرّةً واثنتـين، وضغمـتْ اسـمًا وأكـثر إذ ترتّـل، ثـمّ رفعـتْ الولـدَ فيـما فـوق رأسِـها، وهمهمـتْ:

بســم اللــه، عــلَى جبهــةِ «آدم» قبْــل أنْ يُخلــق ...مسـماثةِ عام.

ـارج العِشَـةِ، ومِـنْ وسـطِ شروخِ الجبـلِ الـذي يطـلّ مِنْ ...: القائـم منفـردًا -في تسـلّطٍ- باحتضـانِ حـدود المدينـةِ، ...ن عنـد آخـرِ خـطٍّ للرؤيـةِ قـدْ ترسـو عليـه أبصـارُ النّـاسِ ...اجـزةُ عـن الاسـتشرافِ، ومِـنْ حيـث لا تصـل قـدمٌ، كانـتْ ...لـت الرّيـحُ، يتكثّـف هواؤهـا، يسـطو عـلى أسـطحِ ... وت يهيّـج ترابَهـا، يغـبّر فضـاءَ الشّـوارعِ، تشـتدّ الرّيـحُ ...ر وتجـيء محتدمـةً قادمـةً مـن ناحيـةِ السّـماء الضّبابيّـةِ ...ي تلثّـم وجـهَ الجبـلِ، فيبـدو سـيختنق.

تذكّـرتْ الأمُ كلامَ الجـدّ «طـوّاف» مَـع كلِّ اشـتدادٍ للرّيـحِ: إنّ الرّيـحَ تسـوّي نـدوبَ النّفـوس التـي زُيّـن لهـا الكِـبرُ والتّشـدّد، ضعفـاء نحـن أمـام جـبروت الطّبيعـة.

كان الجـدّ فيلسـوفًا، حتّـى في أبسـطِ الأمـورِ تتعلّـم منـه ...لى يديـه، لـولاه مـا كانـتْ وافقـتْ عـلَى الـزّواجِ مِـنْ ...ه الـذي يكبرهـا بعشريـن عامًـا، وإنْ طابـتْ لهـا عشرتُـه ...ما بعْـد.

تطـوّف العجوزُ بالولدِ في اتّجاهِ عقاربِ السّـاعةِ:

بســم اللــه، عــلَى جنــاحِ «جبريــل» يــوم هبــط عــلَى «إبراهيـم»، عـلَى عصـا «موسَى» عندمـا انفلـق البحـر، عـلَى

خاتـم «سـليمان»، وفي أذن «عيـسَى»، وثـوب «محمَـد».

الحطـبُ يشخشِـخ في جـوفِ الرّكيـةِ، والرّيـحُ مِـنْ الخـارجِ تخبِــط البــابَ، تــكاد تنتشــله، واللّمبــةُ الجــاز تتراقــص، والولــدُ يكركــر، تنحنــي إلَى أذنِــه تهمــس، ثــمّ تعــود إلَى الــوراءِ، فيكركــر أكــثر، وكانــتْ قــدْ اســتغرقتْ في طقــسِ التّـلاوةِ، ولمّـا اسـتكانتْ أنفاسُـها اسـتدارتْ إليهـما، قالـتْ:

ما اسم الولد؟!

- علَى اسم جدّه.

ردّت الأم وهــي تتحسّـس أنفَهـا مشـمئزّةً مـن الرّائحـةِ العطِنـة الثّقيلةِ التـي فاحتْ، لمْ تعلّق العجوزُ، وإنْ مصمصتْ شـفتيها، قرّبـتْ القِـرط مـن أذن الولـدِ، عـلَى رفـقٍ شـبّكته في الخُـرمِ، وأوثقـتْ عقدتَـه بـالأذن، وهــي تربّـت عليه.

أحسّــتْ الأمُ بالارتيــاحِ، أمســكتْ منهــا ولدَهــا ووضعتــه بجانبِهــا، ورحرحــتْ أخــيرًا، انهمــكا في سردِ بعــضِ الوقائــع المُباركــةِ عــن الجــدّ، وكيــف أنّ التيمّــن باســمِه ســيجلب الخــير للولــدِ.

الولــدُ بيــدِه يعبــث بشــقٍّ في الجــدارِ، يســتخرج قشًّــا، كانــوا استرســلوا في نقاشِــهم، ولمْ ينتبهــوا لحركــةِ أصابعــه الرّقيقــةِ عــلَى جــصّ الجــدارِ، وكأنّ ســحرًا غفّلهــم عنــه.

قرّب الولدُ رأسَه، حدّ أنْ كاد يلتصق فمُه بالجدارِ، من الشّقِّ أخرجتْ حيّةٌ خضراء رأسَها، خضراء بلونِ حقول النّعناع، كانتْ حيّةً صغيرةً لا تكاد تُرَى، ولا يصدر منها فحيح.

جوذبتْ رأسُ الحيّةِ مَع رأسِ الولدِ، ثمّ بلسانِها سلّلتْ إلَى فمِه، برأسِها، قطرتْ سائلًا كالحليبِ، لعق الولدُ، قطرتْ الحيّةُ ثانيةً كأنّما تُرضِعه، تُشبِع جوعَه، ولمّا رفعتُه الأم للمغادرةِ، ونفّضتْ القشّ الذي يضمّه في كفّه متعجبّةً، ثمّ مسحتْ بإصبعها بقايا لبنٍ ظنّتْه أبقاه في فمِه عقبِ رضعةٍ مُتقيّأةٍ، كانتْ الحيّةُ قدْ اختفتْ داخل الشّقِّ، وأُقفِلَ مِنْ بعْدِها.

حسيب الجبل

يُـروَى؛ والعهـدةُ عـلى رواةِ مدينتنـا، هـؤلاء ممّـن عـاصروا الحادثـةَ قديمًـا، فحفظهـا أبناؤهـم مـن عـلى ألسـنتِهم، وتناقلوهـا، أو النّسـوة اللّـواتي شـطّتْ بهـنّ السـنّ، وصـارت تجاويـف أفواههـنّ خاليـةً طريّـةً كقشر البرتقـال العَطِـن، آسـنةً كـماءٍ راكـدٍ، لكنّهـنّ عمّـرن، يـروَى أنّ الشّـيخ «حسـيب الجبـل» لمْ يولـد كسَـائرِ العيـال، بـلْ عندمـا سـقط مـن رحـمِ امّـه، تـدلّى يتأرجـح في حبـلٍ مجـدولٍ مـن لبـلابٍ وزهـرٍ أخـضَر، وكانـتْ أمّـه وقتـذاك في الجبـل ترعَـى غنـمًا.

طقّت الشّمس في كبد السّماء، وشعرتْ أمّه بالألم، وقعتْ على بطنها تصرخ، لمّ صراخُها نسوة أخريات كن يرعين، وأمامهنّ ركعت على ركبتيها، أفرَغتْ سوائلها، اسندتْ عليهنّ، بصقتْ، ازرقّ وجهُها، فردن ذراعيها، وسّدن رأسها، وقبْل أنْ تفرط ظهرَها، من بين وركيها قفز، حاولتْ إحداهنّ أنْ تتلقّفه، لكنّ هبوطَه كانْ أسرَع من استجابتها لقفزتِه، ولمّا قفز، قفز برأسِه، فخبط في الحجر، شهقتْ واحدةٌ، غير أنّ الرّضيعَ لم يُخدَش حتّى، رفعته أمّه تفحَصه وهي تشدّه مِنْ حبلِه العجيب، كان وجهُها غارقًا في العَرق، إنّما باستْ جبينَه، التفّت حولها النّسوة، شهدن وجهًا كوجوه الرّجال البّالغين، له شارب نابت ولحية خفيفة، أرعبهنّ وجهه، بسملن، صاحت امرأة:

- جنّ! خلّفتِ جنًّا يا وليّة؟!

فقالوا، من بعْد، أراده الله وليًّا، لا يلد البشرُ جنًّا، وما يستحيل حدوثه لا يجوز افتراضه.

قطعن حبلَه اللّبلابيّ المُزهِر بسكّين سخّنه لحدّ الاحمرار، ولم يكن دمّ، بل كان سائلٌ كالعسل في ملمسه، كالرّيحانِ في رائحتِه، لففنه في فروةِ خروفٍ، وظلّ يرفس بقدميه، نظر إليهنّ واحدةً واحدةً، تخوّفن منه، بدا يكشف ستر نفوسهنّ، يستبطنهنّ، وهو ابنُ دقائقٍ في الحياةِ.

فجـأةً أزهــر قطيـعُ الخرفـانِ، فـروةُ كلّ خـروفٍ كانـتْ تنفــش، وحاوطــوا الرّضيــعَ، وثَغـوا، وابتلعــتْ بطونُهــا ســيقانَها، فراحــوا يزحفــون زحفًــا، كأنّمــا يتدحرجــون مِــنْ حولــه، ككــراتٍ مِــنْ قطــنٍ.

النّســوةُ صرخــن، نزلــن يهرولــن إلَى شــوارع المدينــةِ، تركنــه وأمّــه وليكــن معهــما اللــه، بــدوَن واثقـات لــئن هــذا مِــنْ عَمــل الجــنّ قطعًــا.

أقامــوا لــه المجالــس في المدينــة، وسرت الحكايــات، بــين إنــكارٍ، وتســبيحٍ، ووجــوب شــكر اللــه عــلى إعجــازِه، وتــزاورُوا ليشــهدوا المعجــزة، فشــهدوها.

أمّــا اســمه؛ فكونــه محســوبًا عــلى الجبــلِ، وحســيبَه، وإعجــازَه.

لكــنّ الولــد لم ينشــأ ككلّ الأولاد، أول مـا بـدأ المـشي سـار وعمــره نحــو أربعــة أشــهر، آنــذاك كان يحبــو أمــام بــصر أمّــه، ثــمّ قــام يمــشي، خبطــتْ عــلَى صدرِهــا، وكانــتْ تعــرف أنّ مثلــه يــأتي العجائــبَ بســهولةٍ، لكنّهــا تخــشَى عليــه مــن الحســدِ، كيــف يُمكــن أن تحصّنــه مــن أعــين النّــاس؟! استشــارتْ شــيخًا وليًّــا، رقّــعَ لهــا عــلى أثوابِــه آيــاتَ قــرآنٍ، وقــال لهــا:

- إذا تحمّــم فامزجــي المــاءَ بالــتّراب، إنّ الــتّرابَ حافــظٌ

بأمر الله، ولا بأس أنْ تشطفّيه بمنقوعِ اللّيمون.

وكلّما حمّمته أذابتْ قليلًا من التّراب في الماءِ، وعصرتْ اللّيمون.

ثمّ أدركت قدماه الجبل بلا دليلٍ ولا دافعٍ، بواعزٍ منهم، صعد صغيرًا، في غفلةٍ عن عينِ أمّه خرج، رأوه سائرًا نحو بطن الجبلِ، فقالوا لعلّه مندوهٌ، وليس غيره أحده بينهم، إنّما اكتشف مدقًّا طالعًا كان مخفيًّا بين الحجارةِ والتّراب، طلع وحدَه، وكانتْ الشّمسُ متألّقةً على رأسِه، لكنّه رجع واللّيل انتصَف، فبدا لهم رائيًا أنْ كُشف له ما لا يدركونه.

كلّما فقدوه أو تحيّروا مكانَه ذهبوا إلى الجبل، يسترجعونه إنّما يعود، كأنّ هاجسًا يجذبه، أو بينهما الفة، كأنّ الجبلَ أبوه، لا تمسّه كائناته ولا تفتك به ضواريه، ثمّ إذا ما بلغ سنواته العشر، أقام له بيتًا من خشبٍ، سيُطلق عليه -فيما بعْد- «المَسرَى»، حيث يُسرى بالمعذّبين إن شقّوا ممّا لا طاقة لهم به، فيكون في «المسرى» علاجُهم وراحتُهم وقضاء حوائجهم الرّوحانيّة.

أقام بيته في المكان الذي سقط فيه ببطنِ الجبلِ، وسيقولون: كيف تعلّم المشي صغيرًا وكيف تعلّم البناء وكيف أدرك الأشياءَ في طفولتِه؟! سيردّون على أنفسِهم، ويخبطون أكفّهم: علّم «آدم» الأسماءَ واستنطق طفلًا في

المهـد، فهـل ثمّـة شيءٌ بعيـدٌ عـلى اللـه؟!

سـيتآخى «حسـيب الجبـل» مـع الأسرارِ هنـاك، سـيعرف الخرائـط ويفـكّ الرّمـوز والطّلاسـم، ولـن يغالبـه في الجبـلِ علـمٌ، إلّا وأحـاط بـه.

ســـالم

تُـرَى؛ أيُّ شرٍّ يُمكن أن يجعـل النّيلَ، مرّةً أخرى، مدفنًا؟

كـم عامًا مرّوا وهو حبيسُ الماء؟

«اتّبَـع «رع»[1] تنَل خبيئتَكَ».

في رأسِـه لا يزال الصّوتُ يدوّي.

كانــتْ لأجدادِهــم سُـلطةٌ هائلـةٌ عـلى الحــروفِ، يستخدمون الكلـمات بألغازِهــا، يُدركــون كلّ أسرارِهــا،

بـلْ ويحتجـزون القـوَى الخفيّـة بـين الطّلاسـمِ والإشـاراتِ والنّقــوشِ والرّمــوز.

- «سـوف تملك ما بين السّماء والأرض».

يدمـدم الصـوتُ في كلّ خلجـاتِ طموحِـه، مالـه يشـعر أنّـه سيسـتمدّ بعضًـا مـن هـذه السُّـلطة؟! لـن يصبـح حبيـسَ الرّمـوزِ بعْـد ذلـك، سـيتحرّر، سيسـتطيع أن يقـرأ جميـعَ الإشـارات المُسـتغلَقةِ.

- «ستبلغ الحكمة والمعرفة».

يقـضي نهـارَه أسـيرَ حلمِـه، يصبـو إلَى خبيئتِـه شـغوفًا، يفتنـه الخيـالُ بهـا، كأنّ بـه يتأهّـل لأثرِهـا المُقبِـل عـمّا قريـبٍ لا محالـة.

- «ستصل إلى جوهر الفوضى وتُلقّن معنى الاستباحة».

يستشـعر حلمـه، يمـلأ حواسّـه، كأنّ الحلـمَ طـوع يديـه، أو مـا بينهـما ليـس أبعْـد مـن مسـافةِ إشراقٍ.

يقـف «سـالم» عـلى ضفّـةِ النّيـل، ضفّـة الشّـوقِ، يكـرّس شـوقَه كلّ صبـاحٍ، متأهّبًـا بـلا كلـلٍ، يعـوم قليـلًا، تتقطّـر عـلى جسـدِه العـاري أشـعةُ الشّـمسِ، دافئـةً، يغتسـل بهـا، يُنعِـش حلمَـه، يجلـس، يداعـب المـاء بقدميـه، يُبـاشِر هـذا

الحلم بغوايةٍ لا يداخلها يأسٌ، يؤمن أنّ مركب الشّمس[٢]
.. وف تظهر ذات شروقٍ، يقودها «رع»، وسوف تأتي له
الحلم المُبتَغى؛ الذي صار قاب سطوعين أو أكثر قليلًا.
..ا.

إنّه يحسّ بالقُرب، بالكشفِ، سوف تتعرّى خبيئتُه
ن سترِ الأرضِ عند أن تلوح المركب المجنّحة، ستتجرّد
ن طلسمِها، لا بدّ ستظهر، إنّ النّقوش التي ارتسمت
لى جدرانِ بيتِه تؤكّد ظهور المركب، إنّه وعدُ حارس
الخبيئة، وطالما كشف المارد عن رمز «رع» فستظهر،
..مّا ستفعل.

يتنفّس النّيلُ طيورَ نورسٍ، تبدو ندفًا بيضاء كالقطنِ
ومض على صفحةِ الماءِ، يفارق الموجُ أجنابَها في دوائرِ
متعرّجةٍ رقيقةٍ، بينما رغوتُه تطوّف متدافعةً، تتسابق
إلى ضفّة النيلِ، فقاعاتٍ بارقة، ثمّ يبدأ زبدُه الشّفيفُ
في الذوبانِ مثل رقاقاتٍ هائشةٍ، سرعان ما تفركها
الحشائشُ الخضراء التي تحزّم الضفّة، لحظةَ أن يلطمها
الموجُ، ويطوّق كاحِلي «سالم»، فيُدغدِغ جِلدَه، والمراكبُ
الشّراعيّة والسّنابكُ والرّفاسات بموتوراتها التي تجأر،
ترنّح جيئةً وذهابًا بين الضّفتين؛ الشّرقيّة والغربيّة.

الضفّةُ الغربيّةُ تشغي بالحَركةِ، حناطيرٌ ترنّ أحصنتُها
بحدَواتِها على إسفلت الشّوارعِ، باعةٌ متفرّقون في

الأنحاءِ، أجانبٌ يستدلّون عن خريطةِ الصّعودِ إلى وادي الملوك والملكات ومعبدي «الدّير البحريّ» و «هابو»، بعضُ المرشدين يفاصِلون في أجرةِ التّوصيل، أولادٌ صِغارٌ يلاحقون الزّبائنَ بالعادياتِ وأوراق البرديّ في إلحاحٍ، وفيما يحدث كلّ هذا، كان بال «سالم» منشغلًا.

ينظر إلَى عمدان معبد «الأقصر» السّامقة في سماءِ النّاحية الأخرَى، بينما الشّمس مِن ورائِه تُنتَزع -في تأنٍ- من جسدِ النّهارِ الذي شرع يذبل.

يطالع بوجهِه صفحةَ الماء، يرَى انعكاسَه علَى السّطحِ الرّقراق، ثمّ للحظةٍ يبدو انعكاسُه يمازحه، يبتسم، يلاعب له الوجهُ حاجبيه، يضمّ أهدابه مستغربًا، ثمّ يفتح عينيه ثانيةً، وجهُه المرسوم علَى صفحةِ المياهِ يستدير، كأنّه يغطس، يتراجع مذهولًا عندما يلمح قفاه منعكسًا هناك، لكنّ يدًا تقبُ من بطنِ الماءِ تقبِض علَى رقبتِه، كانتْ يدًا معروقةً بالعُشبِ الأخضر، أصابعُها تلتفّ عليه، تجذبه إلَى أسفل، بلا إرادةٍ يفقد توازنَه، اليدُ تطمِر رأسَه في المياه، ينازع، يفرفط، يكلبش علَى اليدِ بذراعيه، يحاول أن يقلعها مِنْ رقبتِه، شيئًا فشيئًا يغيب جسدُه كلّه مشدودًا بقوّةِ اليدِ، يلتحم وجهُه بالوجهِ المطبوع علَى الماءِ، ويجرفه التّيار يجري بهما إلَى الأعماقِ، يجدّف، مرّةً بعْد مرّةٍ، يكاد يفطس، غير أنّه، ولمّا ثابر في منازعتِه، أفلتته اليدُ، برزتْ رأسُه،

... الهواءَ بسرعةٍ وعلَى حرمانٍ، سبح إلَى الضفّةِ،
... عيناه لا تزالان تراقبان سطحَ الماءِ في هلعٍ.

...ر الماءُ مِنْ جسدِه، ثمّ لم يكد يستدير منصرفًا،
... وجد المُحيطَ من حولِه متهرّئًا، وعلَى هيئاتِ
...ـةِ، لا شيءَ يعمره غير أطيافٍ رماديّة مهلهَلة،
...س ولا يستقرّ لها شكلٌ، مثل تموّجاتٍ دُخانيّةٍ،
... ولج إلى بُعْدٍ قاتمٍ ضبابيّ، هكذا، فجأةً.

رأى عبر النّهرِ ظلامًا، يتسلّق أكتافَ النّهارِ، فيما
...سُ تخبو نافقةً، والعالمُ يرقد ساكنًا، بلا ملامح،
... م الحركةِ.

...م، غُشيَتْ أعصابُه، طُوّق بالدّهشةِ علَى روعٍ، ظلّ
...ر علَى الضفّة شهورًا طويلةً إذا ما صودف وظهرت
... سركب الشّمس، دونما جدوى، لم تظهر المركبُ،
ولم تتحقّق أمنيته، والآن، أهذا ما كان ينتظر؟! أين
ال... مس؟! حتّى في غيابِها كانتْ تندلق منها الألوان
...ـية مثل عرق آخر القيظ، لكنّها اختفتْ، باختفاء
الـ... ـالم الذي يعرفه، باختفاء النّاس، والبيوت، المعالم،
الـ...ـجيج، والواقع، كأنّما أدلِف به إلى عالمٍ موازٍ، يخلو
إلا منه، وفي المدَى ستائرُ الظّلمة مُنسدلة علَى شَطر
ال... صر!

هزّ رأسَه، نفضها مرّةً واثنتين، طرّف بعينيه لحظةً

فلحظـة، كانــتْ الضفّــة الغربيّــة كأنّهـا فنـاءٌ مبكّـر قبــل أوانِ القيامـةِ التـي ذكرتهـا النّصـوصُ المقدّسـةُ، ولمّـا اسـتدار ثانيـةً نحـو الضفّـة الشّرقيّـة كان الفنـاءُ أيضًـا، لا مراكـب ولا سـنابك ولا رقّاسـات ولا معبـد! كلّ مـا شـوهد منـذ قليـلٍ صـار بـددًا، بـدورِه!

شـعر بالـبرد، بعبثيّــةِ التّســاؤلات، التّكهنــات، كأنّ العــدم، الــلّا أرض أو سـماء، كـروحٍ تسـبح في نفـقٍ ليــليٍّ لا نهــائيّ الظّلمــة، الأشـكالُ مــن حولِــه تتوافــق، تتــمازج، تُســتَبدل بعضهــا بعضًــا، ثــمّ يتمخّــض الظّــلامُ عــن ظــلامٍ ألعَــن، تفاصيـلُ العـالم الجديـد كأنّمـا مرسـومة بأقـلامِ الحِـبر والرّصــاصِ والكُحــلِ!

تُســاق قدمــاه عنــوةً نحــو هــذا الفنَــاء، ثمّــة رمــالٌ تسـحبهما إلَى خطـوٍ لا إراديٍّ، لمـاذا تحـوّل الطّينُ إلَى رمـلٍ؟! لمــاذا خــلا العــالمُ؟! هــل للأمــرِ علاقــةٌ بانتظــارِه مركــب الشّـمس وحلـول «رع» في السّـماء؟! لم يـدرِ! بـدا لـه الأمـرُ عجائبيًّــا، كأنّــه أســطورةٌ تُبعَــث مــن قلــبِ خيالاتِــه!

ظلّــتْ قدمـاه تسـيران بـه كأنّمـا علَى غير هُـدَىً، وبـدتْ الأرضُ رخــوةً، لم يكــن في الظّــلامِ إلّا دُخــان، ومخــاوف، واحتـمالات لا حـصر لهـا، كانــتْ قدمــاه تسـيران بـه كأنّـه محمـولٌ علَى ريـحٍ، ولم تعُـد عينـاه تُبـصران غـير الضّبـاب المشـوّش، وبـدا الجبـلُ، و «سـالم» يُسـاق إليـه، مـن بعيـدٍ،

ا.ا ء ،تحـرك نحـوه بنفـسِ السّرعـةِ، بـلْ كان الجبـلُ يدنـو
.. ء ء ن عنـد الأفـق مثـل كائـنٍ خـرافيٍّ مهيـبٍ، قـدْ يجثـم
ء.ء ء عـمّا قليـلٍ ويتلبّســه.

...ـمُه يرتعـش، لا يعــرف أوّل المخــاوف ولا آخرهــا،
أم ي مخاوفــه القديمــة مــن انطفــاءِ العــزم والمُجالــدةِ؟!
أم ي مخاوفـه مـن صيرورة مركـب الشّـمس وهـمّا؟! لم يعُـد
، ,ها! هـل أضحَـى حلمُـه بمركـب الشّـمسِ إلى زوالٍ؟!

الجبـلُ بأحجــارِه وصخــورِه وأســنّته وجنوحــه يركــض
.. ه، يندفـع، بـدا يسـتهدفه كسـهمٍ طائـشٍ، لا يلـوي إلّا
، لى هـلاكٍ، يتسـمّر جسـدُه، لا إراديًّـا كذلـك، ثـمّ حـاول
ا، ،تحـرّر مـن سـيطرةِ الغرائبيّـة دون جـدوى، ثمّـة مـا
،، كـه وفـق إرادةٍ يجهلهـا، ثمّـة مـا يحرّكـه ومـا يوقفـه،
ا، ا يضبـط إيقـاعَ جسـدِه، مثـل دميـةٌ، وهـا هـو يتحجّـر
في انتظـارِ أن يرشـق فيــه الجبـلُ، يتحجّـر مُكرَهًـا، حتّـى
ا ،مراخ محبـوس لا يخـرج!

الأرض رخـوةٌ، وأطرافُــه أيضًــا، يــداه تتشــعّبان، رغــمًا
.. ه، تتمـدّدان إلَى الفـراغِ، شيءٌ يجذبهـما بعـرض الطّريـق،
...دو مصلوبًـا في الهـواءِ، ممطوطًـا مـن ناحيتـين، لا يقـف
، لى ثابـتٍ ولا يتحـرّك إلَى معلـومٍ، وإنّمـا المجهـول يتحـرّك
إليـه، المجهـول القـادم إمّـا مـن أسـطورةٍ قديمـةٍ أسـقطتها
ذاكـرةُ البـشرِ، وإمّـا مـن رأسِـه المحتشـدةِ بالأفـكارِ المُهوّمـةِ!

لا يشعر بالألم رغم تمدّد جسدِه من جهتين.

لا يشعر بشيءٍ.

هل أصبحت أفكاره كلّها مجرّد عبث؟!

كيف جاوز الخيالُ حدًّا فاصلًا، ليصبح حقيقةً؟!

يحسّ كأنّه يهوي مِنْ حالِق، يُستأنَف دوران هذا العالم به، لا ثباتَ لقدميه، يسقط على شبكةٍ من نسيجٍ لزج الملمس، بدتْ كغراءٍ، كخيوطِ عنكبوتٍ محشوّة بالرّيشِ، التصقتْ به، وفيما يسقط، ينفتح فكُّ عملاق، كأنّ الظّلامَ تجسّد، تخرج أنيابٌ، تحاول افتراسَه، يجد نفسَه مُحاطًا بأصواتٍ زمجرةٍ وأزيزٍ، لا معنًى لغضّ البصرِ عمّا يحدث، كان قدْ أغلق عينيه، لكنّ حواسَّه ظلّتْ مستعمرةً بالاستشعار، لا معنًى أيضًا للمقاومةِ، ففضلًا عن مقاومته العبثيّة، لمْ يكنْ في جسدِه عضلةٌ قويمةٌ، كلُّ عضلاتِه تراختْ، كالمستسلِمِ دونما إرادةٍ.

البخارُ مِنْ حولِه، همساتٌ تزوم، يستكمِل سقوطَه، تبدو مِنْ تحتِه الأشجارُ متفحّمةً، ولها أسنّة، كالرّماحِ، في انتظارِ أنْ يقع، لتنسّر جسمَه.

فجأةً؛ يعود به الزّمن لحظةً للوراءِ، ليجد نفسَه مصلوبًا إلَى جهتيْن، والجبلُ يستهدفه!

الطّواف

أباشر تأمّلي؛ كالعادةِ، مع كلّ غروبِ شـمسٍ.

يرفـرف جلبـابي مَـع الرّيـح، يكنـس تـرابَ الأرض، يتعفّـر
دري، أكـحّ، أغسـل وجهـي بمـاءِ القلّـةِ، أسـتعيذ باللـهِ
نْ شرورِ الغَيبـةِ والنّميمـةِ.

علَى قاعدتـين مِـن حجـرٍ يسـتريح تمثـالا «ممنـون»[٢]،
رط الأرضُ فيـما حولهـما خـضراء تكسـوها ألـوان المغيب،
ن بـين شـقوق التّمثالـين تمـرّ الرّيـحُ، يـئن التّمثـالان، يـكاد

كلاهما من شدّة الأنين يُجتزّ من قاعدتِه هاربًا، أتكئ برأسِي على لبنةٍ من طوبٍ وأغمض عينيَ كأنّما أستمع لتأوهّاتهما، يسترسل التّمثالان في نشيدهما المغيبيّ الجنائزيّ، كلّما آوت الشّمس إلى غيابٍ تعذّبا وصرخا، كأنّهما يحتميا بضوئها، فيما تشبّعتْ شقوقُهما بالنّدَى، الذي يمنح الصّراخَ، مَع سريانِ الرّيحِ بفتحات التّمثالين، مهابةً وألمًا ومسحةً شجَى.

والرّيحُ إذا خلتْ إلى وادينا، وقلّما فعَلتْ، تكسّر، تطيح، تُهلِك ولا تُبقي، في بطنِ الرّيحِ تتجوّل الكائنات التي كُتب على مدينتِنا أن تلقاها؛ ربّما ذات غفلةٍ أسطوريّةٍ.

في بطنِ الرّيحِ يصطرع الجنُّ المشهود لهم بالنّجاسةِ، أو المُقدّرِ أن يسرحوا إغواءً للبشرِ على إغواءٍ، يتجوّل الشرُّ على إطلاقِه، وتنفلتْ المَهالك التي لا يُمكن احتمالُها؛ هكذا تعوّدنا أنْ تكون الرّيحُ.

أفرد ذراعي، أفرك تراب الأرض بأصابعي، أتحسّس دفئَه، يستمرّ التّمثالان في نحيبِهما، وفي مجرَى الطّريق البعيدةِ كان يتمخطر عجوزٌ بحمارِه، يرفع يدَه يُلقِي السّلام، أمنحه سلامًا عابرًا ثمّ أعود ببصري نحو التّمثالين.

قالتْ أمّي، منذ سنواتٍ، إنّ التّمثالين يسكنهما رَصدٌ،

...تني بقــراءةِ القــرآن باســتمرارٍ، إنّ أسرارَ حــروفِ ...ان قــادرةٌ عــلَى صَرف كلّ شرٍّ، ورغــم ذلــك، رغــم أنّي ...ل مصحفًــا صغــيرًا في ســيّالةِ جلبــابي، رأيــتُ بعينــيّ ...

...ان اللّيــلُ يومــذاك بــلا قمــرٍ، وكنــتُ قــدْ غفلــتُ مُتعبًــا ... لم أشــعر بحلولِــه، ومــا كــدتُ أفتــح عينــيّ حتّــى بوغــتُّ ...سـد يدنــو منّــي، كان عــلَى هيئــةِ أســدٍ، لكنّــه أســدٌ ...ول مئذنــةٍ شــاهقةٍ، وكان مِــنْ حجــرٍ، وهــو يتحــرّك ...وي بــدتْ أطرافُــه تطقطــق، وبــدا زئــيرُه يجلجــل في ...ـاءِ، ولمّــا نهضــتُ أســتعيذ وأحــاول النّجــاةَ، كان قــدْ ...ل بقدمِــه عــلَى جســدِي، مرّ فوقــي، اختنقــتْ أنفــاسِي، ...ـقــتْ للحظــةٍ مارقــةٍ، والأســدُ الحجــريّ ينــزع قدمًــا ...ـط بأخــرَى، بــدا لا يعمَــد لي بالتّحديــد، كأنّ لــه وجهــةً ...د، بــلْ بمجــرّد أنْ مــرّ مِــنْ عــليّ اختفَــى.

قصصتُ على أمّي هــذه الحكاية، صاحتْ بفزعٍ:

خلاص، اســتأجر عاملًا ليتســلّم الأرضَ منك ويزرعها!

- أنتِ تعرفين أنّهم يخشــون أرضنا يا أمّي.

البلــد مليئة بالعمّال يا «طوّاف»!

لكن أرضَنــا عنْد التّمثالين.

وأيُّ تمثالين يا أمّي؟!

هنا أجلسُ منذ طلعةِ الصّبح -وحتّى تزول الـ
في حراسةِ الأرضِ، أرضُنا تجاور التّمثالين، وهي
قيل إنّها مرتعٌ للأرواحِ والجان، لذا، يرتعب منها
نزرعها برسيمًا وجرجيرًا، يفصل فيما بينهم شجرة
قديمة؛ قِدم التّمثالين، أو كأنّما مِنْ عُمرِ الأزلِ.

شجرة جمّيز

شجرة الجمّيز هذه؛ ورغم انتشار شجر الجمّيز في
ا، المدينةِ، بين الحقول، الوديان، البيوت، تبدو متأصّلةً،
ا[illegible] أنبتَها الرّبُّ قبل البَشر.

لم يكن أحد يعرف كيف نشأت، أو من أيّةِ بذرةٍ
...سحورةٍ، جذعها بزرقةِ النّيلِ، وأفرعها كالأيادي التي
...رزنت على المعوزين وقت الشّدة، لا خشنة ولا قاسية،
أو ذات قشورٍ وتشقّقات، بلْ ناعمة، ملساء، خلاف
...جارِ الجمّيز الأخرَى في المدينةِ، لا يتبدّل شكلُها ولا
...رم مهما جرت عليها الأزمِنة.

تـربّي الآبـاء، ومـن قبلهم الأجـداد، على وجودِهـا، بالأحرى عـلى أسـاطيرها، كلّ الـذي يعرفونه عنها الأسـطورة.

قيـل إنّهـا تحـرس التّمثالـين، ومـا يخبئانـه أسـفل منهـما مـن كنـوزٍ، وقـد سرد أكـثر مـن عابـرٍ في ليـلِ الطّريـق أنّ الشّـجرة تُبعَـث ماردًا، يقطـع عليـه الطّريـق، تُبعَـث مـاردًا جسـمُه مشـتعل، يهـدِر في نـبرةٍ تـكاد تتزلـزل لهـا الأحجـار، يتمـدّد بعـرضِ الطّريـق، فيضطّـر العابـر، مـن فزعِـه، أن يسـتدير ويرجـع مهـرولًا.

هـذه حكايـةٌ، أمّا بقيّـة الحكايـات التـي شيعتْ عـن شرُ الشّـجرةِ فلـم توثّقهـا الألسـنة، بـلْ عمـدتْ إلَى عـدم ذكرِهـا، كلّ مـا يريـدون توثيقـه عـن الشّـجرةِ أنّهـا مبروكـة، يطبّـب بهـا العليـل.

جرّبوهـا في هـذا الأمـر، مرّات ومرّات، كلّ مـن لـه ولـدٌ صابتـه حمّـى، أو لسـعته عقـرب، يكفـي أن يسـتظلّ بهـا طيلـة نهـارٍ كامـلٍ، فيكـون شـفاؤه، لـذا، إن جـرؤ أحدهـم أن يذكرهـا بالـشّرُ، سرعـان مـا يوبّخونـه، ويتذكّـرون بركتَهـا.

إنّ مدينتهـم هكذا، مهما تخفّى الشّرُ، لا يشـعرونه.

مهـما تبدّلتْ هيئاتُه لا يرونه.

هـل يوقنون في الخيرِ إلى هذه الدّرجة؟!

سالم

الجبلُ يُستوَقف، كالمُرغم، فيما خلف شجرةِ جمّيز
..ـمةٍ، تسدّ النّظر، تحجزه عن العبور إليه، تبدو
..ل شبحِ امرأةٍ عجوزٍ خرج فجأةً من صُلبِ العتمةِ.

راحت ملامحها تتكشّف على رويةٍ، التجاعيدُ
..الأخاديدِ في وجهِها، اتّسعت عيناه ولم يقوَ على الصّراخ،
..م كلّ اختلاله الذي يُمكن أن يدفعه لهذا، إنّ الحكايةَ
..ديمة التي كانوا يرهبونهم بها وهم صغار ماثلة
..جسّم، نفس الوصف، الملامح، الرّعب المُستطير من
أ..س الخرافات!

إنّهـا «الشّاويشـة»[٤]؛ المـرأة الطّاعنـة التـي تحـرس مخابئ الموتى، وألغازهـم، تحرسـهم منـذ آلاف السّـنوات، لم يرهـا إلّا السّـلف، كانـتْ تخـرج في اللّيـلِ، حـين تطمـئنّ إلَى نفـوقِ النّهـارِ، تعاقـر الجبّانـةَ والمقابـرَ وتوابيـت القُدامَـى، تحرسـهم في انتظار أن يجسر رجل على اقتراف أيِّ شـغفٍ أو طمـوحٍ، كي تُجْهِـز عليـه، تقتـات عـلى روحِـه، فتظـلّ -بوجودهـا- كلّ القبـور القديمـة والتوابيـت والموميـاوات آمنـةً حصينـةً، وكـما تحـرس بطـن الأرض، تحـرس -أيضًـا- كلّ الأسـاطير التـي يُجـوز أن تنشـأ مـن سـيرتِها، كأنّهـا تُحيـي الحكايـات وتجعلهـا مبعثًـا للرّهبـةِ كلّـما مـرّ الزّمـن.

«الشّاويشـة» تتفـرّع مـن الشّـجرةِ، تصبـح الأغصـانُ أيـاديَ، يصبـح الجـذعُ صـدرًا، فبطنًـا، فسـاقين، فجسـدًا عـلَى اكتمالِـه، والجبـلُ يتهشّـم مـن حولهـا، يصـير شـظايا مـن حجـارةٍ، تتسـاقط عـلى «الشّاويشـة»، فتلتحفهـا.

تغطّـي بالأحجـارِ جسـدَها، يصبـح فتـاتُ الصّخـرِ ثوبَهـا الـذي يسـتر عريهـا، تُدقَـدقُ عظامُهـا وهـي تُسـتبدَل بالأحجـارِ، قطعـةً قطعـةً، فيـما كانـتْ تتضخّـم، تشـعّ عيناهـا شررًا بلـونِ الـدّم، ثـمّ تضحـك، بصـوتٍ لا شـبهةَ بشريّـة فيـه، تصيـح:

- أقسـمتم ألّا تدنّسوا جسدًا مقدّسًا!

يكاد «سالم» يموت فزعًا، يموت حيرةً، قلقًا من المصير.

..ام بحثه عن الأسطورةِ سنوات، لكنّ الأسطورةَ تباغته، ..ورها طاغٍ، نادرٌ، وله رعدةٌ لم يجرّبها من قبْل، أسطورة ..س يشهد سواه مثلها، كُتب عليه أن يكون شاهدًا عليها، .. جديدٍ ربّما، وها هو معلّق بين الواقعِ والخيالِ، ها .. مشدودٌ من جهتين إلَى حيث يمتلئ الظّلامُ بأطرافِه الأربعة، في حين كاد يتمزّع، ولم يزل لا يشعر بالألم!

وبينما تتضخّم «الشّاويشة» أمام عينيه، يشفط ..مُها كلّ المشاهدِ المعشّقةِ بالظّلام، كأنّها نقطة .. ب كُبرَى، تتضخّم فتعصف الرّيح، وتُقتَلَع الأشجار ..يدة نحوها، وتقترب السّماء بدوّامةٍ، تتضاءل، كأنّما .. حق، لترتمي إلى صدرِها وتمتزج به.

كان فمها فاغرًا يسحب إليه هواءَ الرّيحِ، وكانت ..و منه، علَى مهلٍ، وفيما تدنو، تزفر الرّيحَ من ..رها، تزفرها ندفًا مشتعلةً، وتزوم:

عهدتُ بي إليكم فنقضتم العَهد.

وإذا بالعالم الخالي من حوله يتحوّل إلَى أطلالٍ ..ترقة، نيران، الحجارة تشتعل، والأشجار، ومن بقايا ..لام يستوقد الجحيمُ كأنّه يُبعث إلى قيامٍ، وفيما .. ت النّارُ قد طالتْ جسدَه، فاشتعل بدورِه، كانتْ «الشّاويشة» تخترقه، تعبره إلَى حيث هناك، إلى حيث .. لام آخر، وربّما أسطورة فريدة في تمامِ انبعاثِها.

الطَّوّاف

حصّنتنـي أمّي من الشّرّ والسّـحرِ بقرطٍ مبروكٍ.

قبـل سـنواتٍ عـوّذني أبي، أيضًـا، مـن الأسـاطيرِ ومـن السّـحرِ، قـرأ عـلَى رأسِي قرآنًـا وبخّـرني، وصنـع لي حِجابًـا عـن الـشّرِ عنْـد شـيخٍ فـارسيٌّ، قـال لي بعْدهـا:

- إنّـه مـن قـماشٍ زُخـرف بآيـاتِ القـرآن وطلاسـم الحـروف.

أرتـدي الحِجـاب بالـدّوام، لا يُفسِـده مـاءٌ ولا عَـرق ولا جهد، لم أنزعـه عـن رقبتـي منـذ كان عمـري عـشر سـنواتٍ او اقـلّ، أحتفـظ بـه -فضـلًا عـن التعـوّذ- كذكـرَى مـن أبي.

أحــدُ الجــنِّ المَــردةِ الذيــن حلّــوا مــع موســمِ ريــحٍ قديـمٍ مـسّ أبي، لم أكـن قـد تجـاوزتُ الثلاثـةَ عـشر عامًـا، لكنّـي رأيـتُ أبي يتبـدّل، كانـتْ ملامحـه مرتعشـةً ونظراتُـه غير مسـتقرّة، خـرج بـه أعمامـي إلى المشـايخ في البلـدان المجـاورةِ، وصعــدوا بــه إلى الشّــيخ «حســيب الجبــل»، حاولـوا مـرّة وأخـرى أن يفكّـوا عنـه المسّ، بـلا جـدوى، بـدا كأنّه مُسـتفحِلًا لا يريـد مغـادرة جسـدِه، ثـمّ أهلكتـه الملعـةُ مـن طلعـاتِ الشّـفاءِ مـع أعمامـي، قالـتْ أمّـي وهـي تبـكي:

- ذهـبَ أمـام بـصري، تركتـه يذهـب، وإن ظـلّ قلبـي يخشى شـيئًا سـوف يحـدث، لا أُدركـه، كان الضّبـابُ وقتئـذٍ يحـاصر الأفـق، وكان الشّـتاء قارصًـا، خـرج وقلبـي يرافقـه، ولمّـا عـاد لم يحـكِ شـيئًا، بـل أخـذ يسـعل، حـدّ أنّـه مـن شـدّة سُـعالِه رشّ عـليّ مـن فمِـه دمًـا، كان الـدّمُ غزيـرًا، فصرخـتُ أنـوح، اتّسـعتْ عينـاه وأخـذ يتمتـم عِبـارات لم أفهمهـا، رميـتُ جسـدي عليـه حـين مـضى ينتفـض، شـخص طويـلًا إلى سـقف السّـماء، ثـمّ أراح رأسَـه عـلى كتفـي، ولم يعُـد هُنـا.

لكنّي كنت أرى في أعينِ أعمامي توقيرًا لم يبدّده زمنٌ، وعزاءً دام بدوامِ التّذكّر، يقولون: «ماتَ بين أيدينا»، ولا يزيدون على هذا القولِ، ومهما حاولت أن أستفسِر عنْ الذي جرى له في الخلاء هناك، يظلّ قولُهم مقتضبًا لا يحمِل أيّة إجاباتٍ!

اختار لي أبي اسمَ «الطّوّاف» وفاءً وعرفانًا لجدّي؛ أبيه، الذي لم يكنْ ثمّة حديثٌ في مدينتِنا إلّا عن بركتِه، حيث كان إذا جسّ بطن الأرضِ بيدِه أخرج خبيئتها، وكثيرًا ما كان يُدرك أنّ ثمّة ما لا يُمكن البوح بأسرارِه، إنّ للأرضِ أسرارَها، وكان جدّي حافظ السّرّ، وكان النّاس يعرفون أنّ ما يُدركه جدّي من الأسرارِ لا يُحصَى، ولا يُقاس به ما يُفصِح عنه، كان جدّي يعرف أسرارَ الأقدمين، يحوّط ويعوّذ البيوتَ والنّفوسَ ببركةٍ وبهجةٍ مِنْ الأزمنةِ الغابرةِ؛ أزمنة الحِجارة والسّحرِ.

كذلك كانتْ تصرّ أمّي أنّ لجدّي أسرارًا لمْ تُكشَف لبشرٍ بعْد، فبينه وبين الملائكة قصّة، كانتْ تقول:

- تفنّنَ ملاكٌ في صنعِ عطرٍ برائحةِ السّماء، ومنحَه لجدّكَ امتنانًا ومحبّةً، هو العِطرُ الذي يفوح مِنْ أثوابِه دومًا.

ولأطمئِنّ لكلامِها، كنتُ أحشر أنفي بين جلابيبِه أتشمّم، كانتْ تنبعث منها رائحةٌ غريبةٌ، لمْ أشمّ مثلها مِنْ قبْل، وكنتُ أحيانًا ألتحف بملابسه وأخلد إلَى النّومِ،

علَى أملِ أنْ تنهال علَيَّ بركاتُ الملائكةِ وروائحُهم إذا سرى اللّيلُ، وأثناء نومي؛ كنتُ أرافق الملائكةَ علَى الأبسطةِ المخمليّةِ التي تحمل أعمدةِ السّماءِ فيما وراء الأفق، وكنتُ أتدلّل بينهم، أمازحهم، أراقب معهم الأرضَ مِنْ أعلَى.

وكنتُ، رغم عُمري الصّغير، يروق لي الإنصات إليه، لأنّ بي أتعرّف إلَى الأشياء مِنْ خلالِه، وكان جدّي، إذا أوشَك الفَجر، يوقظني، يسقيني الماءَ، ويصحَبني إلَى غرفتِه المقبّبةِ في آخر البيتِ، حيث تكون سجّادةُ الصّلاةِ مفروشةً، وماءُ الضوءِ يسخّن علَى «الكانون»، أملأ ماعونًا بالماءِ الدافئ وأطلّع أمام بابِ الغرفةِ أتوضّأ، تزقزق العصافير التي تسكن شجرة النّبق في قلبِ البيتِ، يجلس جدّي يقرأ مِنْ المُصحف، حتّى إذا ما انطلق الأذان وقفتُ خلفه، وصليّنا.

كنتُ أحبّ أنْ ألعَب معه في غرفتِه، كانت الغرفةُ منشأةً علَى وضعيةِ غُرف الطّوب اللّبنِ العتيقةِ، سقفُها مقوّس، مبطّن بالقش، فكانت الجدران تسلّم الأصوات لبعضِها البعض، ألصِق أذني بزاويةِ الجدارِ الأيسرِ، وأصيح فيه:

- هيّا يا جدّي.

يضحك، يقوم إلَى الجدار المُقابِل متوكأ علَى عصاه،

يوشــوش بصــوتٍ غــير مســموعٍ، لكنّــه يــدوّي في أذني، أتقافــز، أهلّــل:

- كنـت تقول كذا وكذا.. صح؟!

يضمّنـي إليـه، أنام جواره على السّرير، أقول:

- هل هذه الجدران مسـحورة فعلًا يا جدّي؟

يمسّد رأسِي:

- لا يا «طوّاف»، لا يوجد سـحر، إنّه علم.

- لــو عــاد الزّمــن بــك يــا جــدّي هــل كنــت ســتصبح عالمًــا؟

- لا يُمكـن العودة بالزّمن أبدًا.

- لكـنّ أبي قـال بإمكاننا تغيير القدر.

- القـدر غيب، كيف يُمكـن تبديل ما لا نعرفه؟!

- قـال أبي القدر يتغيّر الدّعاء.

- الدّعـاء يـا «طـوّاف» يجلـب العفـو والغفـران ولا يغـيّر أقدارنـا.

عـرف الجميـعُ جـدّي صالحًـا، إذا طـوّف في البـلادِ فهـو يطـوّف بـلا هيئـةٍ آدميـةٍ، مثـل الملاكِ، يستكشـف الأسرار، يدعـوه النّـاس لمجالسـتهم، والتـبرّك بـه، وكانـوا يقولـون إنّ وجهَـه يتلـوّن بلـونِ الغيـبِ، ويرونـه ممتطيًـا حصانًـا أبيـض لـه جناحـان ويرتـدي لباسًـا مـن ورق الشّـجرِ، أخضر في أخـضر، عـلى كتفِـه غـرابٌ يسـتشرف عنـه المسـتقبل، يحلّـق معـه أحيانًـا، يسـتنبئ الأشـياء بصوتِـه، قالـوا إنّ صوتـه حـاد، يجلجـل في أرجـاء اللّيـل، يشـاهدونه وهـو يطير في السّـماء، يحلّـق فوقهـم، فـوق بيوتِهـم، مـع غرابِـه، يأتيـه النّسـاء ليقـرأ عـلَى رؤوسـهنّ، يفـكّ السّـحر عنهـنّ وعـن أولادهـنّ، فبـات النّـاس يراودونـه ينشـدون بركتـه، يؤمنـون بولايتِـه، بسـلطته، وقالـوا إنّـه كان يخـرج في اللّيـل، يصاحـب «الشّاويشـة» حارسـة القُدامـى، فتمنحـه أسرارَ الأرض، يصيـد أفـراخ العصافـير مـن بـين فـروع الأشـجار، يحنّطهـا، ثـمّ يدقهـا، يصحنهـا، يحشـو بهـا أفـواه المـوتى ليلًا كي يحصّـن الأحيـاء، قالـوا عـوّذ الجميـع ببركتِـه، وصـار مشـيئتهم، واختيارهـم، إذا عابـث السّـماء ولعـب مـع القـدر والغيـب فهـو لا يفعـل إلّا لحمايتِهـم مـن الـشرّ(٥).

غير أنّ أمّي قالتْ:

- نعـم كان جـدّك هكـذا وأكـثر، لكـنْ قبْـل أن تكـون أنـتَ يـا ولـدي، كأنّـه ارتـزَق بـك، فاكتفَـى.

سالم

قالوا: يا «سـالم» لا تعبَث بجوفِ الأرض..

لكنّ «سالم» عبث.

ضلّلـه الخبـلُ، أغـواه حلـمُ الخبيئـة، أدرك الجميـعُ في المدينـةِ أنْ طيـح بعقلِـه وبثباتِـه، بـات يلهـث خلـف الخبيئـة التـي دُفِنـت في بيتِـه ذات طقـسٍ قديـمٍ، بـل إنّـه، وعـلى غـير عـادةٍ، عاقـر ضفـافِ النّيـل في انتظـارِ كشـفِ

سيجيئ مع مركبِ الشَّمس، مع «رع»، إله القُدامى، بالطَّبع استهزءوا به، وتندَّروا عليه، وكلَّما قابلوه قالوا:

- الخبيئةُ تمنحك نفسها يا عبيط، لن يجدي انتظارَكَ ولا بحثُك عنها.

وكان يجنّ جنونُه عندما يقبّ الماء مِنْ بطنِ الأرضِ في قلبِ بيتِه، فهكذا لن يستطيع ولو عشرة مشايخ كلهم أنْ يُخرِجوا الخبيئةَ المدفونةَ، وفي كلِّ مرّةٍ يظهر فيها الماء يردم البئرَ قبل أن يُغرق الماءُ البيتَ.

قال له أحد المشايخ إنّ هذا مِنْ فِعلِ الجنِّ حارس الخبيئةِ، إنّه يصونها بخروج الماءِ، وعلَى «سالم» أنْ يحوّط خبيئتَه قدر ما يُمكنه، بالتّعاويذ، بالمشايخ، بالبّخور، بالدّأب، طالما يصرّ على استخراجها، وإلّا غارتْ في عمق سحيقٍ من بطنِ الأرض، فيستحيل الظّفر بها.

استقدَم شيخًا من مغرِب البلاد، كان الشّيخ مشهودًا له، يُخرِج من جوفِ الأرضِ ما لم يستطِع رجلٌ أنْ يُخرِجه.

الشّيخ أقام في بيتِ «سالم» لأيّامٍ طويلةٍ، قرأ على الخبيئة وحوّز البيتِ بالرّموز، دقّ المساميرَ في الزّوايا وغطّى الجدرانَ بالخيش، لكنّه أخفق، ورغم الأموال التي أنفقها «سالم» عليه لم يفلح.

الشّيخ المغربيّ هزّ رأسَه حينذاك في قلّة حيلةٍ، وخبط كفًّا على كفٍّ:

- لمْ أشهَد مَنْ في قوّة ماردك مِنْ قبْل.

- لقَد لبّيتُ لكَ كلّ ما طلبت!

- هذا الأمر أكبر مِنْ قُدرتي.

وطردَه، بعْد أنْ احتَجز خواتم الفضّة والذّهب التي يلبسِها في يدِه، نظير ماله المُهدَر بلا جدوَى، وقبْل أنْ يغادر، هدّده:

- لمْ يسطُ عليّ أحدٌ قبْل ذلك يا «سالم»، ضَع في حسابِك أنّ الدّنيا دوّارة، هل هذا ثمن خدمتي لك؟

- توكّل على الله يا شيخ.

وأشاح بيدِه يُصرِفه.

ذات مساءٍ، وجدوه واقفًا تحت المطرِ خارج بيتِه يرتجف، ويتضرّع، كأنّما جُنّ، يتشنّج جسدُه، تتّقد عيناه، يزوم بشفتيه، تتحوّل ملامحُه، تتجعّدُ، يعقِد حاجبيه، وتتّسع فتحتا منخاريه كأنّه ينفثُ الصّهدَ، بلا منطقٍ.

يهـرول النّـاس إليـه مـن فورهـم، يحاولـون تحريـره مـن أغلال الجنـون، لكنّـه يُطبِـق عـلَى رقبـةِ أحدهـم، فيحتقِـن وجهُـه، ويـصرخ.

يندفـع نحـوه الآخـرون، يسـقطون عليـه، يكالبـون السّـيطرة عـلى جسـدِه، لكـنّ قـوّةً غـير عاديّـة ولمْ تـؤت لبشرٍ كانـت تسـكنه، تدفعهـم جميعًـا بعيـدًا، يُفزَعـون.

يصيح أحدُهم:

«سالم» ملبوس!

الطّـوّاف

بيتُنـا يقـع محاذيّـا لمعبـدِ «الرّمسـيوم»[٦]، عـلَى جهـةِ امتـدادِ مخـازن غـلال سـيّدنا «يوسـف»، تسـوّره الجبّانـةُ مـن النّاحيـةِ الأخـرى، كنـتُ أطـلّ مِـنْ الشّرفـةِ عـلى المعبـدِ كأنّي أناجيـه الأسرارَ، كان جـدّي يقـول:

- تُـرك المعبدُ لنـا كي نوثّق علاقتَنا بالأسرارِ.

معبـدُ «الرّمسـيوم» لـه أبـوابٌ يسـتحيل عبورُهـا إذا حـلّ الظّـلام، تقـوم حـول المعبـد كأنّمـا تصونـه مِـنْ عبـثِ

الأزمنـةِ، ويتألّـق متنُـه في اللّيـل بأضـواءٍ طالمـا كنـتُ أسرح
،، صري معهـا وهـي تنفجـر نحـو الأعـالي، كانـوا يكذّبونـني،
،ولـون: «يـا لخيالـك!»، لكـنّ جـدّي كان يصدّقنـي، فقـد
،ـتُ أرى، ومـا أنـدَر مَـنْ يـرى في مدينتِنـا! إنّهـا المدينـةُ
التـي تخـشى الظّـلامَ، خشـيتها المـوت، مدينـةٌ تحرسـها
الحجـارة، مدينـةٌ عكِـف أهلُهـا في الحكايـاتِ الغابـرةِ
، لى خدمـة كهنـة المعبـد، وخدمـةِ كِبـار المـوتى، ودفنهـم
، ا يليـق، كانـوا يسـمّونهم: «عـمّال الجبّانـة»، ولم يكـن
ا م حـظُّ مثـل حـظّ «العامّـة» الآخريـن، لا يشـاركونهم
الاحتفـالات ولا الأعيـاد المُقامـة عـلى مـدارِ الأعـوام، لكـن
ان لهـم الحـظّ في التقـرّب مـن الآلهـة أكـثر مـمّا أتيـح
ا...ـة العامّـة، حيـث سـكنوا جوارهـم وبينهـم، وتحدّثـوا
إليهـم بـلا عـازلٍ، وإذا قدّمـوا القرابين، قدّموهـا بـلا تكلّـف
ولا بهرجـة، كأنّ المرءَ فيهـم إذا خـرج مـن بيتِـه واكتفـى أنْ
...هـل للآلهـة، فهكـذا يقـدّم قربانَـه.

كان جـدّي يقول وهو يشـير بإصبعه نحو المعبد:

هؤلاء جاوروا الآلهة، فاسـتقرّوا في آخرتِهم.

وكنـتُ مثـل جـدّي؛ أرى الأرواحَ التـي لعنَهـا الإلـه
... وو»[٧]، أراهـا عـبر هـذه المسـاحةِ الشّـفّافةِ بـين الزّمـانِ
والمـكانِ، تتّخـذ رحلتهـا إلى جـوفِ المعبـدِ، فيـما كان جـدّي
هنـاك، مـن عنـد آخـر الجبّانـة التـي تحـفّ مدينتِنـا،

وإلى الشّـوارع الفاصلـة بـين بيوتِنـا ومعبـد «الرّمسـيوم»، انتهـاءً بالمنصّـةِ الملكيّـةِ المقدّسـةِ في المعبـد، يتمـشّى عـلى مَهـلٍ، كأنّمـا يقـود الأرواحَ للمسـتقرّ، لم يكـنْ يكـترث إنْ اتّهمـه أحـدُ أبنائِـه بالمبالغـةِ وهـو يقـصّ عليهـم مجريـات مغامرتِـه مـع الأرواح؛ رغـم مكانتِـه بـين النّـاس ومعارفِـه الغيبيّـة، بـلْ كان يقـول:

- أرى ما لا ترون.

أجـل؛ مثلـه أنـا، أرى الأرواحَ، ولـو بشـكلٍ جـزافيّ، توقظنـي بأنينِهـا في غيابـةِ اللّيـل، فأتبعهـا.

أصـواتٌ ترغـي في رأسي، إنّهـا الأرواحُ، لا أعـرف إنْ كانـتْ هـذه هبـةٌ أم لعنـةٌ! إنّمـا، ومـا دام جـدّي يصاحـب الأرواح الملعونـة، بـلْ ويهيـم عـلى وجهِـه خلفهـا، فلأكـنْ مثلـه.

حسيب الجبل

وهـو يصعَـد الجبـل، ينحنـي يتشـمّم الأرضَ، يبـدو أثـرُ الأسرارِ التـي يتتبعهـا كأنّ صـدرَه مُغلـقٌ عليـه، وثمّـة شيء يدفعه لمواصلـةِ التتّبـع، علَى الأرض يقـرأ كلّ الآثـار، يحـاول أن يصـل إلَى الـسّرّ، وظنّـه سـيقرأ الإشـارات والعلامـات بشكلٍ صحيـحٍ، طالمـا فُطـرَ علَى لغـزٍ لا إجابـةَ لـه إلّا مِـنْ خلالـه، مِـنْ داخلِـه.

في الأسـفل يبـدو ضـوء المصابيـح في الشّـوارع مختنقًـا، مؤطّـرًا المشـاهد وتشـحَبُ عنْـد حلـول الظّـلام، يواصـل

صعـودَه، لا يخـاف مِـنْ اللّيـل، طالمـا اختـبر حواسّـه تجـاه اللّيــل، لمْ يخــب اختبــارٌ، كلُّ مشــاعرِه متوافقــة بشــكلٍ غرائبــيٍّ مَــع طبيعــةِ العتمــةِ، وعــبر حواسِّــه أدرك، أيضًــا، أنّ الأسرارَ برمّتها بنــت اللّيــل، الأسرارُ مجدولـة في حضـورِ القمـر وفي سريـانِ الغيـم بأعجـازِ اللّيـلِ، أمّا النّهـار فللبشرِ الآمنــين مِــنْ الأفــكارِ ومِــنْ التّســاؤل، لا لمَــنْ يَضْبَــون إلى فــضّ الأسرارِ ومعاقرتهــا.

إنّـه لا يعلـم بالتّحديـدِ مـا الـذي سيصل إليـه، كلّ الـذي يعرفـه أنّــه مكشــوفٌ لــه، حتّــى في ســنّه الصّغــيرةِ هــذه، يُـدرك أشـياءً ليـس يُدركهـا العجائـزُ، قالـوا بُعـثَ «حسـيب الجبــل» إعجــازًا، عــلى أيِّ إعجــازٍ إذن كان بعثُــه بهــذه الكيفيـة طالمـا الوصـول عبثـيّ؟!

بــدا الجبــل يجــري في روحِــه، كلُّ رؤاه صخريّــة عــلَى هيئــةِ الجبــل، كلُّ أحلامِــه ناشــفة مثْــل خِصــال الحَجــر، الجبــلُ نفســه يهمــس لــه، يســتدعيه.

بلغـتْ قدمـاه موطنًـا مِـنْ الجبـلِ عـرف فيـما بعْـد أنّـه مـكان ولادتـه، رأى يـدًا ذهبيّـةً عرضهـا أشـبار وطولهـا أمتـار تسـتريح في بقعـةٍ بعينهـا، لامسـها بيـدِه، لمْ يجفـل، أنبـأه همـسٌ أنّ هـذا الموقـع دون غـيره هـو مسـتقرّه.

بالبلطــةِ حــشّ الشّــجر، قطّــع فروعَــه، لملــم الأفــلاق الخشــبيّة المتناثــرة في الخــلاء، ربــط الأخشــاب بأوتــارٍ

...هـرَةٍ مِـنْ اللّيـف ومـضَى يُنشـئ بيتَـه، في المدينـةِ تركـوه
...واجسِـــه، كانـــوا يخافونـــه، وكانـــتْ أمّـــه تخـــاف عليـــه
...هـم، أنكـرت عليـه أنْ يتبَـع سُـطوةَ الجبـلِ عـلَى روحِـه،
...داءه، بـلْ افترضـتْ أنْ يسـبِغ نـاسُ المدينـةِ جنونًـا عـلَى
...الـه، لكنّـه طمأنهـا:

سـأزورك مِـنْ حـينٍ إلَى حـينٍ يـا أمّـي، أمّـا النّـاس
...يصعدون لي، لا تحمـلي همّهـم.

ولمّـا خلـتْ روحُـه إلَى المسـتقرّ فـتر فورانهـا، لعلّـه أُنبـيء
أن السّرَ قـدْ يـتراءَى لـه، في لحظـةٍ آتيـةٍ، قدريّـة، عـلَى هـذا
الجبـل.

خلتْ روحُه إلَى المستقرّ كأنّه مأمورٌ.

الطَّوَاف

في هـذا اليـوم البعيـد؛ وكنـتُ صغـيرًا، ابـن سـتّة أعـوامٍ، شـاهدتُ جـدّي يخطـو داخـل المعبـد.

عـلى ترقّـبٍ خرجـتُ أتبَعـه، أتبَـع الأرواحَ، كنـتُ حـذرًا، إنّ الأسـطورةَ مقدّسـة، وحامـل الأسـطورة أيضًـا، وأيّ حـظٍّ أن يكـون حاملهـا جـدّي!

معبـد «الرّمسـيوم» سـاكتٌ، إلّا مـن أنـين الأرواح، ألـج بعـده، أراه وهـو يتلـوّى عـلى موسـيقى لا يسـمعها غـيرُه،

ـث الأرواح أشـبه بالضّبـاب، وكنـتُ مـن ورائِهـا كأنّي
ع حلـمًا طارئًـا.

قيل لي مـرّات ومـرّات إنّ جـدّي مكلّـفٌ، لم أفهـم معنـى
تكليـف، ولمـاذا جـدّي؟!

وقالـوا عـن الأرواح الملعونـة التـي تسـكن المعبـد، وكانـوا
إذا تحدّثـوا عـن الأمـر تحدّثـوا سرًّا، كأنّهـم يخافـون مـن
وحِ المُعلـن، كأنّهـم مراقبـون مـن السّـماءِ.

المعبـدُ مبلّـطٌ بالحجـارةِ، والحجـارةُ غافيـةٌ، والأعمـدةُ
امخةٌ كأنّمـا إلى أبـدٍ، والأرواح تحـوّم خلـف جـدّي، وقبـل
وغ المنصّـة المقدّسـة، أسـمع صـوت جـدّي:

تعال يا «طوّاف».

اقتربـتُ، وكانـتْ حـواسي عـلى أشـدّها، الوجـلُ يحـفّ
لـواتي بينـما أقـترب.

استدار لي جدّي:

هذا قدرُك يا بنيّ، كيف لم تسـتدلّ على الصّوتِ؟!

سالم

يسيطرون عليه بعْد منازعةٍ، يسلسلون بالحِبال يديه وقدميه، يرمونه جوار جدارٍ.

أدركوا أنّ الشّيخ المغربي رحل وترك من خلفه لعنةً مقيمةً، كأنّما يؤدّب «سالم».

بدا وجهُ «سالم» مدَخّنًا، مُخربشًا، تركوه أمامهم ولم يقتربوا منه ثانيةً، لم يكن واعيًا، لم يكن يدركهم، لكن ظلّوا يراقبونه، أرسلوا مرسالًا يستدعون الشّيخ «حسيب الجبل».

هبـط بعْـد سـاعتين أو يزيـد، وقـف بينهـم يداعـب اسـته، وهـو يفحـص «سـالم» بعينيـه، أمّـن عـلى كلامهـم:

أجل إنّه ملبوس، وربّما أسوأ!

فيـما ظـلّ «سـالم» متشـنّجًا جـوار الجـدار، عينـاه ..حدّثـان، بدتـا غاضبتـيْن، وفيهـما شرٌّ، وجسـمه كان ..انهبّـا، كفـرنٍ.

«حسـيب الجبـل» عريـضٌ بحجـمِ بـابٍ، ذقنُـه مشـعثةٌ، أسـود الوجـهِ، وقفـوا يتهامسـون، سـمح لهـم بالفُرجـةِ عـلى «سـالم»، بـاشر طقوسَـه خـارج البيـتِ، وبينـما تغيـب ملامـح «سـالم» خلـف العَـرق، ويفتـح أهدابـه ببـطءٍ، وفي نظرتِـه شرٌ، يمـدّ «حسـيب الجبـلِ» يـدَه يحـاول يصافحـه، إنّمـا ..ضـه، يطـوّح يـدَه.

يتنـاول «حسـيب الجبـل» مصحفًـا، يضربـه عـلى رأسِـه ..ه، يفـحّ «سـالم»، يفتـح فكّيـه مثـل ثعبـانٍ يتهيّـأ لابتـلاعِ فريسـتَه، يُلصِـق «حسـيب الجبـل» شـفتيه بأذنِـه، يتلـو:

- ولدينـا كتابٌ ينطِـق بالحقّ وهُم لا يُظلَمُون(٨).

يتلـوّى جسـدُه، يـئنّ، يتلـو «حسـيب الجبـل»، يـدُه قابضـةٌ عـلى رسـغِ «سـالم»، يحـاول أنْ ينـزَع يـدَه، لكنّهـا اشـتدّ عليهـا، يقـرأ «حسـيب الجبـل» الفاتحـةَ، قِصـار

السّور، يعرّج بتلاوتِه إلَى سورةِ البقرةِ، «سالم» يقهقه، يرتعش جسمُه، يقهقه أكثر، يدفع «حسيب الجبل» بيدِه، ثمّ يستقيم، والحبال تقيّده، يحاول أنْ ينقضَ علَى «حسيب الجبل».

اللّبس يبدّل الحالَ ويغيّر الطّبائعَ، يحتضنه بيْن ذراعيه، يهمهم:

- حِفظًا يا الله مِنْ كلِّ شرٍّ.. حِفظًا يا الله.

يتخشّب بيْن ذراعيه، وكلّما تخشّب تلا عليه مسترسلًا لا يتوقّف، يثور، ينازع أغلالَه، يضرب الجدارَ برأسِه، يعلو صوتُ «حسيب الجبل» بالتّلاوةِ، ينتفخ وجهُ «سالم»، يتراجع النّاس قليلًا، يبدو علَى وجوههم الفَزعُ، «حسيب الجبل» يثبّت «سالم»، الذي يحدّق فيه، اللّعابُ يندلق مِنْ فمِه، ثمّ، فجأةً، يتحدّث «سالم»!

يتحدّث بلغةٍ غريبةٍ، كأنّها تعاويذٌ، يعوي، كذئبٍ، يلتصق النّاسُ ببعضِهم البعض، فيما يبدو أنّ الذي بداخل «سالم» يرغب في التّحرّر، يبدو أشدّ بأسًا مِنْ «حسيب الجبل»، يعافر «سالم» بقدميه، يضرب -رغم القَيدِ- «حسيب الجبل» في بطنِه، يفور جسمُه، لكن «حسيب الجبل» يلكمه ويستكمل تلاوتَه.

يتراجع عنه «سالم» فيما تشتدّ وتيرةُ التّلاوةِ، تتصلّب
... عيناه علَى صدرِ «سالم»، فينكمش، بينما فمه يزبد،
... يضحك، يُشعل «حسيب الجبل» عودَ ثقابٍ، يطفئه
في رقبة «سالم»، يتراجع أكثر، يُشعِل «حسيب الجبل»
عودًا آخر، يطفئِه بجبهتِه، ينكمش وينكمش، يفحّ،
... «حسيب الجبل» بتعاويذه، يجدِل حبلًا، يتلو
... و يجدِل، الحبلُ مِنْ ليف النّخلِ، يلفّه علَى رأسِ
«سالم»، تُضرم فيه نارٌ مِنْ لا شيء.

تصرخ إحدى النّساء اللّواتي التففن يراقبن ما يجري،
... «حسيب الجبل» بنظرةٍ آمرةٍ، تضع يدَها علَى
فمها وتبتلع صرختها، و «سالم» يكتوي بنارِ الثّقابِ،
عودًا عودًا، ثمّ يضرب «حسيب الجبل»، برفقٍ، مفكًّا
في صدغِه، يهبط دمٌ أسود، تنفر عروقُ رقبتِه، يرشّ
«حسيب الجبل» علَى وجهِه ماءً، يسرسع، تتبدّل
السرسعةُ إلَى خوارٍ، يتلو «حسيب الجبل» ويتلو، يفترش
«سالم» الأرضَ تحته، يسقط عليه بتلاوتِه، يستجديه
بعينيه، لكنّه يتلو:

- بسم الله.

ينتفض جسمُ «سالم»..

- القهّار الجبّار.

ينفتح فكّاه لآخرِهما..

- القهّار الجبّار.

يكشِط «حسيب الجبل» الدّمَ بإصبعِه ويدسّه في فمِ «سالم»، بينما يتراجع عنه، ثمّ بذراعيه يطوّقه، فيتقوّس «سالم» ويُفرِغ بطنَه عليه.

يمسّد «حسيب الجبل»؛ أخيرًا، شعرَ «سالم»، ثمّ يلتفت للجمعِ المتفرّج مفزوعًا، يبتسم، يهزّ رأسَه، يزفر النّاس، فيما يكون «سالم» قدْ أغمَى عليه، للتّمامِ.

لكنّ «حسيب الجبل»، قبْل أن ينصرف، استدار إليهم:

- لا تطمئنوا إليه، إنّها ليستْ النّهاية..

ثمّ تمتم وهو يوليهم ظهرَه:

- لعلّها بداية شيءٍ لن تستطيع ولا قوى العالم مجتمعة أن تصرِفه!

الطّوّاف

بالأمــسِ البعيــدِ، في مثــل هــذا الأوان، كانــت تتضــوّع الشــمسُ مِــنْ خلــف معبــد «الرّمســيوم»؛ كصبيّــةٍ خيالُهــا أبيض ولمْ تُــدْرِكْ التّجربــةَ، تُبعَــث عــلَى ســطوعٍ مقــدّسٍ مشــهودٍ بــدوامِ دنيانــا، تُــشرِف عــلَى الجالســين الذيــن بلغــوا مآربهــم مــن كلّ حــدبٍ وصــوبٍ أمــام بوّابــةِ المعبــدِ.

انضــمّ إلينــا خلــقٌ كثــيرٌ مِــنْ البلــدان القريبــة والبعيــدة برحالِهــم، وقــدْ حطّــتْ دوابُهــم القادمــة مِــنْ نواحــي الجبــل والصّحــراءِ عــلَى مشــارفِ بوّابــةِ المعبــد الكُــبرَى، فالتقينــا

جماعات بين رجالٍ تثقّلوا بالعباءاتِ الصّوفِ والجلابيب الطّويلةِ والعمائم، ونساءٍ ضربنْ علَى وجوههنّ الأسدلةَ وارتدين المُلاءَ الفضفاضة وعقرن رؤوسهنّ بالمناديلِ علَى غيرِ إحكام.

تخالطتْ روائحُ البَخورِ بروائحِ العرقِ، روائحِ الأطعمةِ بروائحِ العطورِ، أقبَل بعضُهم يصافحون أبي ويلاطفونني، وبدوا علَى معرفةٍ وثيقةٍ به.

بدأنا في التكدّس عِنْد المُرتَقى الصّاعدِ بدرجاتٍ حجريّةٍ نحو البّوابةِ، فركَ أبي نعليه مِنْ الرّملِ ففركتُ بعْدَه، استوَى بنا المقامُ أمام البّوابةِ فبدتْ ضخمةً كعملاقةٍ ولا تُقارَن، خفَ أبي بصرّه إليها، طالع التّكوينات الصّخريّة -المزيّنة بالنّقوش- تتسنّد علَى بعضِها البعض حول البوّابةِ، وتحزّم السّورَ المترامي حول المعبدِ، ثمّ لامس بيدِه الحَجر الذي يبلّط متنَ البّوابةِ ونحن ندلف معْ التّيارِ المتدفّق.

في السّماءِ غبشةٌ ضبابٍ، وفيما أراقب المتزاحمين يدخلون إلَى جوفِ المعبدِ كانتْ الرّيحُ تراود الوجوهَ، والأرديةَ، فترفرف، وطيرٌ عبَر فوقنا في سربٍ كان يرنّم أنشودةً كأنّما يحتفي بالشّيخِ القادمِ من بلادِ الفُرسِ ليستوطن المعبدَ.

انتشر خبرُ مجيء الشّيخ الفارسي في كلّ بلدان

..معبد، قالوا له حظوةٌ وله سطوةٌ على الجنّ وعلى
كان جوف الأرضِ، ولمّا ثبتتْ مكانتُه وجرّبه النّاس
.. بعْد مرّة صار الجميع يتوافدون إليه، كلّ من
له حاجة عند ساكني بطن الأرض أو من تمّ ربطه
.. حره، كلّ من كانتْ له أطماع عند القُدامى، كلّ
..رٍ في خبيئةِ بيتِه، قال أبي إنّ موت جدّي ترك فراغًا
بين النّاس، تُرَى هل استُبدِل الشّيخُ بجدّي؟!

افرَدَ لي أبي فراغًا بجوارِه فحللتُ فيه، ضمّني بساعدِه،
.. رى النّاسُ حولنا بينما نحاول أنْ نعثر على وجهتِنا إلى
.. ث يُقيم الشّيخ في آخر المعبد، استوقفنا مجذوبٌ
..اعنُ في السّنِ وناولني ثمرةَ جوافة وهو يربّت على
..لبي، هزّ أبي رأسَه لا يُمانِع فتناولتها منه، وأخرَج
الرّجلِ مِنْ حزامِه قدحًا نحاسيًّا صبّ فيه عصير التّمر
البارِدِ، رشفه المجذوب على عجالةٍ وأرجَع القدَح لأبي
.شكره، لكنّه أقعَى على ركبتيه ووسّدَ راحتيه على
..تفيّ، حدّق فيّ، وقال:

- «الطّوّاف»، على اسمِ المبروك الكبير.

- نعم هو حفيده.

قال أبي وهو يضحك، فاستدرك المجذوبُ رافعًا
سبّابتَه إلى السّماءِ:

- ابن «الطّوّاف»، شـأنُه ليس ككلّ مَنْ بلغَ شـأنًا.

- علَى التّقوَى ربيتُه، أمّا الشـأنُ فللّهِ.

فحصني بعينيه:

- كُـن مؤمنًـا فيـما يَنتَفِـع بـه مَـنْ هـم بغـدكَ، لقـدْ قُـدِّرَتْ لـك الحـربُ، فـلا تنـصرف عَـنْ مصيرِكَ الـذي كُلّفـت بـه.

قال أبي:

- أيُّ حـربٍ وأيُّ مصـيرٍ وأيُّ تكليـفٍ؟ لعلّـك تـرَى غيبًـا! ابتعـد وكـفّ عـن التّخاريـف.

اسـتدار له المجذوب معاتبًا:

- هذا الولد سيحميك مِنْ الشّـتاتِ يا رجل!

- لا حـول ولا قـوّة إلّا باللـه، انـصرف طيّـب قبْـل أنْ أفقـد أعصـابي.

جـوّل بعينيه في أبي:

- إنّمـا لا يُـرَى إلّا مـا كُشـف لنـا ذات قضـاءٍ إلهـي، وكلُّـه بامـرِه.

ثمّ صاح وهو يشخص إلى السّماءِ:

كلّه بأمرِه.

ووثب مهرولًا وغاب في موجِ البشرِ المتلاحقِ دون
التفاتةٍ أخرى، طوّقني أبي بذراعِه خشية الزّحام، وعرّج
بي بيْن دروبِ المعبد التي تُشبه رقعةَ الشّطرنجِ، وكان
يضرب كفًّا بكفٍّ:

حرب! حرب مرّة واحدة! أعوذ باللّه مِنْ شرِّ
المجنون.

سالم

كان أشدُّ ما يخشَى؛ أن تتعصَى عليه خبيئتُه للأبد، رغم أنّها لم تكن حلمًا بعيدًا، ولا عسيرًا، بل كانتْ تحت قدميه، على بُعْد أمتارٍ، لا يفصله عنها إلّا رصدٌ ملعونٌ، يأبَى أن يُرتزق بها، كمن ارتزق من قبْل، وتبدّلت حالُه.

تحايل كثيرًا، استعان -وِفق مقدرتِه- بالمشايخ والدّجّالين والدّراويش، بل إنّه جلب أحد القساوسة. لكنّ الماردَ الذي يحرس الخبيئة كان عفيًّا، لا توازي قوّتَه قدرةٌ، ومهما أجبروه على المغادرة لا يغادر،

ما حاولوا إحراقه لا يحترق، عافروا معه مرّة بعْد
أخرى، ولم تكن له طلبات بعينها يُمكن معها التّفاوض،
المارِدُ يلاعبهم، يناوشهم، يطمْئنهم حينًا فيواصلون
... حتّى يصحو فيهم الأمل، ثمّ يفاجئهم بالماءِ حتّى
... يصل مستواه إلى صدورِهم!

... أحد جبابرةِ الجنّ كيفما أخبره الشّيخ المغربيّ،
... أط عليه أحد المردة التّابعين فلبسه، لولا أن صرفه
... سيب الجبل» بعْد عناءٍ، كما أبلغوه.

... أنّ جسدَه لم يزل يعترك ببعضِ المسّ، يشعر من
... لآخر بسخونةِ أحشائِه، يشعر بأنّه مغيّبٌ بين
... في أوقاتٍ بعينها يرى جاثومًا[9] في كوابيسِه، وإذا
... تيقظ يبدو له أنّ الجاثوم يتقرفص في زاوية الغرفةِ
... جه، كان أسود، ملامحه كملامحِ الصخرِ، يراه جالسًا
... اك في الرّكنِ للحظةٍ ثمّ سرعان ما يتلاشى، يدعك
... يه، يُفزع، لكنّه بات يؤمن أنّ الحدود الفاصلة بين
الوهم والحقيقة التبست عليه.

يدبّ الطّوريّة في الأرضِ، وبصفيحةٍ مقوّسةٍ ينزع الماءَ
... ن الحفرةِ، وكلّما أفرغها امتلأت، يكاد يستولي عليه
اليأس، لولا أنّه متشبّث بخبيئتِه، إنّه يشعر بها مهيّأةً
... اك تنتظر أن يمدّ يدَه ليتناولها، يدَه فقط، وتحيّر
... ف يُمكنه أن يسترضيَ المارد الذي يحرسها؟! لا بدّ من

فعـلٍ يرضيـه وإلّا لأهلكـه وتخلّـص منـه! لمـاذا إذن أبقَـى عليـه إن كان ظهـورُ الخبيثـةِ مسـتحيلًا؟! في مثـل هـذه الحـالات، ومـع اسـتحالةِ الأمـرِ، وتشـدّدِ الحـارسِ، يُذهـب بالحافـرِ والمحفـورِ لأجلِـه، لاسـتولى عليـه الجنـون، فـلا هـو كان سـيعيش متزنًـا، ولا ظلّـتْ الخبيثـة عـلى حالِهـا تلـك!

أخـذ يُخـلي البـئرَ مـن المـاء، قـال الشّـيخ المغـربيّ إنّ هناك سـكّانًا لـلأرض السّـفلى رغـم كلّ شيءٍ، وعليـه أن يحـترز، وأن يحفـر عـلى حـذرٍ، فلـو طاشـت ضربـةٌ وأصابـتْ واحـدًا مـن هـؤلاء قُـضي أمـرُه، ولا فـكاك مـن اللّوثـةِ الدّائمـةِ، لـذا، راح يـضرب محتسـبًا، وإن لم يعُـد يـدري أيّ سـحرٍ هـذا!

اشـتمّ رائحـةً عطنـةً، أشـعل البخـورَ واسـتكمل حفـرَه، وكان يحـاول أن يحـدّ منسـوب طَفـح الميـاه الـذي مـضَى يرتفـع ويتـسرّب إلى جـوفِ البيـتِ، فاشـتغل أسرَع، يحفـر بيـدٍ وبالأخـرَى ينـزع المـاء، ثـمّ فجـأةً، انفجـرت في وجهِـه نافـورةُ الميـاه، فصفـع الجـدار بالطّوريّـة متعصّبًـا وهـو ينفـخ.

ردم الحفـرةَ ثانيـةً، وعـلى حافّتِهـا رقـد، وسـدّ رأسَـه بالـتّراب، وبـدا يتخيّـل مـا الـذي يُمكـن أن تصنعـه معـه الخبيثـة! ثـمّ بـدا لـه أيضًـا أنّ الجـدران تئـزّ، تطقطـق.

انتبـه، رفـع رأسَـه قليـلًا، كانـتْ الجـدران تتقلّـب، تتقلّص، كأنّمـا سـتحاصره فيمـا بينهـا لتـدكّ جسـمَه، قفـز إلى

المـحرةِ، أشـعل بخـورًا، واسـتغرق، وأمسـك المصحـف وعلى
ـلِ راح يقـرأ، آيـات بعينِهـا، مـوصّى بهـا مـن الشّـيخ
المـ ـربيّ، لكـنّ الجـدران تنفـض عنهـا الغبـار، وتُطلِقـه في
الهـواءَ سـحبًا كثيفـة تتدافـع، يكـحّ، تحاوطـه حلقـةُ الغبـار،
ـزلـق قدمـه، إلى الحفـرةِ، إلى بـئر المـاءِ، يصبـح نصـف
ـسـده محتجـزًا بداخلِهـا، زوايـا الغرفـة الأربـع تشـتعل،
الـ ـار لونهـا أخـضر، وفيـما يحـاول أن يسـتنقذ نفسَـه مـن
الحـفـرة يأتيـه الصّـوتُ العميـق:

فتاة بِكر.

لا يفهـم، أهو طلبٌ أم خيالٌ؟!

فتـاة بِكر بـدمِ فرجها ينقطع الماء.

ما هذا الصّوت؟

أبلَـغ به الجنون هذا المدَى؟!

الطّـوّاف

- وما حاجتُنا إلى زيارة هذا الشّـيخ يا أبي؟!

- المعرفة.

- لكنّـك قلت إنّهـم جميعًا دجّالون من بعْد جدّي!

لثّمنـي علَى جبيني:

- يُجزَى كلُّ صاحب سـعيٍ بالمعرفةِ.

ثمّ فجأةً هبّت ريحٌ عنيفة، تصفّر، بدا أبي يريد العودة، بيتُنا مجاور للمعبد، لكنّهُ تردّدَ قليلًا، كان داخل المعبدِ مكمّمًا بالأتربةِ، هرول بي نختبئ خلف أحد الأعمدة، كان الجميعُ قدْ تفرّقوا يهرعون كي يحتموا مِنْ الرّيح، بدتْ ستعصِف الآن، لم يكنْ أحدٌ هنا يعرف على وجهِ الدّقةِ كيف سيكون شكلُ الرّيحِ هذه النّوبة! فكّرتُ: هل ثمّة خطرٌ علينا؟ هل إذا حلّتْ الرّيحُ اقتلعتْ بيتًا أو اثنين في طريقِها وشرّدتْ بعضَنا؛ كعادتها؟!

في مدينتنا، إذا كانتْ ريحٌ، لا تمضي إلّا وتركتْ أثرًا لا يُمحَى، تعرّي القبورَ، وتكشِف ما ستره الموتُ، كنّا نستعد إذا كانتْ، ونجهّز أنفسَنا لنزاعٍ طويلٍ مَعْ آثارِها، هنا الرّيحُ تقتلع الأشجارَ والبيوتَ، تتراقص في بطنِها الأشياءُ، ولا نستطيع فتح أهدابِنا ولو مقدار ظلّةٍ، تتدافع حول البيوتِ الأخشابُ، وتتقاذف الأحجارُ مصطدمةً بها، ننتظرُ مجبرين مرورَها حتّى يُمكن لنا أن ندبّر أمرَنا بعْدها.

تقرفص أبي وضمّني بين وركيه، تكدّس حولنا النّاس، والأخصّ الزّوارُ الأغراب، ثمّ فوجئنا بالمجذوب يعدو ليحتمي بالعمود الذي احتمينا به، ابتسم عندما وقع بصرُه عليّ، وجلس جواري، أبعدني عنه أبي، فزام، وتمتم وهو يحدج أبي:

- إلّا إنّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون[١٠]!

بدا أبي لا يبالي، ولي عن المجذوب مبسملًا، كأنّما يتخوّف الرّيحَ، وبعْد قليلٍ، كانتْ الأشياءُ تتطوّح فيما خارج المعبد، تصطدم بالجدران وتتهشّم.

سمعنا صوتًا يأتِي مِنْ عنْد أحد الجدرانِ، كالفحيحِ، بلْ بدا الصّوتُ ينبعثُ مِن بيننا، لكنّه مجهولُ المصدَرِ، كما لو أنّه يأتي مِن تحتِ أقدامِنا، وفيما لحظاتٍ بدأ الرّجال يتوجّسون، الصّوتُ يقرقع، أمسك المجذوب منجلًا وضربَ به أسفل قدمِه، وصاح:

- فلتُظهِر نفسَك، سوف أحشّك بالمنجل يا لئيم.

- اللّوثةُ شرعُ الرّيحِ يا ولدي.

قال أبي، ثمّ أدار وجهَه للمجذوبِ:

- لعلّك تفطن إلى ما لا نعرف!

- وما أدراك أنتَ؟!

وظلّ يصرخ:

- فلتظهر.

وبـدا يرتعِـش ارتعاشـات خفيفـة، ينـزّ العَـرقُ مِـنْ وجهِـه ، ، م بـرودة الجـو، ومِـنْ خـارج المعبـد ظهـرتْ فتـاةٌ بشـعرٍ ما ا.ش.

صاح المجذوب يرطن وهو ينظر لأبي:

أرايــت؟ المــوتُ يســكن عينيهــا والــشرُّ يقــدح مِــنْ ملامحهــا.

كانـتْ الفتـاة متوثّبـةً، بعينيهـا شررٌ، ذراعاهـا متشـنّجتان، ، دا وجهُهـا مخموشًـا ومتشـقّقًا، وبـه جـروحٌ طوليّـةٌ كأنّمـا ، ذ أمـدٍ، راح أبي يبسـمل، والمجـذوبُ يـصرخ:

الشّـيطانُ يأتي مَعْ الرّيحِ.

ثمّ اسـتدار لي يهتِف:

قاتِل الشّـيطان يا ولد.

ضمّنـي أبي متخوّفًا، ودفَـع المجذوب بيدِه في عصبيةٍ:

- مصمّـم أنتَ عـلى إغضابي! اترك ابني في حاله.

الجبـلُ رابـضٌ هنـاك في الأفـق يلتحـم سـنُّه بذيـلِ القمـرِ الـذي شرع ينبـذر في السّـماءِ، وصرنـا لمْ نعُـد نـرى بعضَنـا البعـض إلّا عـلى هيئـةِ الطّيـفِ المتراقِـصِ مِـنْ شـدّة الغبـارِ،

وفي الخـارجِ ارتطـم رجـلٌ بجـدارٍ وسـال دمُـه، وانبطـح رجـلٌ أرضًـا وتراكمـتْ فوقـه حجـارةٌ.

بـدتْ الفتـاةُ، مِـنْ هنـاك، عنْـد بـابِ المعبـد، تتلـوَّى، تنـازع شرًّا سـكنها بالفعـل، وراح المجـذوب يُبعِدهـا بإشـارات مِـنْ يديـه، ويتعـوّذ، ويتلـو، ثـمّ فيـما قليـلٍ، قـدم أحدُهـم، حملهـا، وركـض بهـا مبتعـدًا.

سالم

الصّـوتُ في رأسِـه لا محَالـة، صـوتٌ عميـق، كأنّـه طالـعٌ
ـ ن جـوف البـئرِ، أو مـن جـوف ذهنِـه، لكنّـه ملـحّ، يزعجـه،
لا يفهـم، لا يريـد أن يفهـم الطّلـب، أهـو طلـبُ الحـارس؟!

الصّـوتُ يتقطّـع، يغيـب، لكنّـه يـترك أثـرًا كالصّـدَى،
،ـاخّ ويلـفّ رأسَـه، لقـد ظـنّ أنّ الشّـيخ المغـربي يخـرّف
ـين أخـبره أنّ الرّصـدَ يحتـاج إلى بنـتٍ يضاجعهـا، بوجـوبِ
أن تكـون بكـرًا، ظنّـه يخـرّف ولم يكـترث، مـرّ الأمـرُ عابـرًا،
لكـنّ الصّـوت يـصرّ عـلى بكـرٍ، مـن أيـن لـه بالبِكـر؟!

يتـلاشَى كلّ شيءٍ ويـزول الغبـار، تعـود الجـدران لموضعِهـا. ويجلـس متسـارع الأنفـاس، حائـرًا، يفكّـر: هـل كان الصّـوتُ حقيقـةً أم محـض وهـمٍ؟! مـاذا إذا حـدث الأمـر؟! هـل سـتخرج خبيئتُـه؟!

يتقلّـب عـلى فراشِـه، بـين الكوابيـسِ وأضغـاث الأحـلامِ، بـين أوهامـه والأمـاني المرجـوّة، وعقلـه يتقـصّى عـن فتـاة بكـر، عـلى ألّا تـترك فيـما ورائِهـا أثـرًا لفضيحـةٍ أو مسـاءلةٍ!

زمّـارٌ يقـدح في حقـلٍ مجـاورٍ، فيـما ينـصرف خيالُـه طالعًـا إلى كلّ الأفـكار المتاحـة، يبحـث عـن الحلـول، بـلا جـدوى، ظـلّ عاجـزًا عـن مجـرّد التفكـير الآمـن، كلّ مـا كان يفكّـر فيـه هـو الخطـر، قـال لـه الشّـيخ المغـربيّ احـترز، تُـرَى ممّـن يحـترز؟! ممّـن يسـكنون أسـفل الأرض أم أعلاهـا!

بعْدهـا؛ بـات يجلـس أمـام بيتِـه يتصيّـد الأفـكارَ، نهـارًا وليـلًا، بـلْ لا يـكاد يسـتغرق في النّـوم أكـثر مِـن أربـع أو خمـس سـاعاتٍ، ثـمّ يرابِـط أمـام مدخـل دارِه، مـا حـدا بالنّـاس أن يعيّرونـه بخبلِـه، وقـد قـال لـه الشّـيخُ المغـربيّ طالمـا ذِيـع سرُّك بينهـم فـلا اكتـمال للأمـرِ، لكنّـه، رغـم أيّ شيءٍ، رغـم أنّ كلّ النّـاس الآن يعرفـون موضـوع خبيئتـه، لم يـزل مرابضًـا عـلى إتمـام المسـألة، ولـو كلّفتـه عمـره، ولـو بـذل قـدر العمـر أعـمارًا، إنّ حياتـه صـارت رهينـةَ الخبيئـة، بنفـسِ الهاجـسِ الـذي دفـع نبيًّـا أن يُفنَـى عمـرَه في سـبيل

ا، يشيّد مركبًا خوفًا من طوفانٍ مزعومٍ!

ولأنّ الأمرَ لا يخلو من المفارقةِ وحُسن الحظِّ، بلْ
،،ترتيبات القدر، وفي غفلةٍ عن أعينِ النّاسِ، عقب أيّامٍ
وأيامٍ من الحيرة، عثر على بغيتِه، كانت فتاة غجريّة
،،انزلقت عن خيامِ جماعتِها، ترنّ الخلاخيل بساقيها، بدا
الليل تواطأ، والأشجار تترقّب، ولا أحدَ في الخلاءِ البّارد
، بره، ذلك عندما ولجتْ الفتاةُ إلى الدّرب، وبدت تبحث
، ن سكّةٍ لإتمامِ طريقِها، إنّها محاسن الصّدف إذن.

كانت عيناها زائغتين، فزاغت عيناه نحوها، وتألّقتا،
واستوثق بهما ألّا أحد هناك يُمكنه أن يُشرف على
فعلته، فقط السّكون، والبرد، والرّيح.

لوّح لها، والأجواء معتمة، وفي حيطةٍ، بعْد تردّدٍ،
اقتربتْ تسأل، وعلى سرعةٍ، سوّم بعينيه، ثمّ كتم
أنفاسَها بيدِه، عاجلها فلم يخرج منها صوتٌ، رفعها
بيدٍ متخشّبةٍ، وفي طرفةِ عينٍ انفتح الباب وانغلق،
وصارت البنتُ داخل بيتِه.

نعم لم يشاهده أحد، نعم وجد خلاصَه، إنّ الآثام
الأولى تُقترَف بمثل هذا الشّغف، الرّغبة، بمثل هذه
النّزعات الملحّة، وعلى نهجِ ذات المصادفات، فأيّ إثمٍ
إن كانتْ في الخبيئة نجاتُه؟!

البنــتُ لم تتعــدّ العــاشرةَ، اســتطاع أن يســيطر عليهــا، غطّاهــا بعمامتِــه، تــرك لهــا مســاحةً للتنفــس، لكــنّ وجهَهــا صــار ملثّــمًا بالقــماشِ، وبحبــلٍ مجــدولٍ أحكَــم وثاقَهــا، ظلّــت تتلــوّى، بعجــزٍ، بقلّــةِ حيلــةٍ، دونمــا طائــلٍ، إنّ الخــير حتــمًا ســيأتيه، عــبر الــشرّ رغــم ذلــك، لا بــأس مــن اقــتراف الــشرّ في مقابــلِ اســتقدام الخــير، أليــس كذلــك؟!

قبع بجوارِهــا يفكّــر، هــا هــي البكــر كــما طُلــب بالتّــمام، كيــف سيحدث الأمــر إذن؟ هــل عليــه أن ينتظــر؟

البنــت تكــزّ عــلى أســنانها، أشــفق عليهــا، تصــوّر مــا ســيجري لهــا الآن، لكنّــه مثلهــا؛ قليــل الحيلــةِ، لامــس بأناملِــه مرفقهــا، فارتعــدتْ، ودّ لــو تعــذره، لــو تقبــل فقــط حجّتــه، انحــشرا معًــا في تلبيــةِ الغايــة، ولا منــاص، ســوف يؤدّيــان الطّريــق ســويًا، لنهايتِهــا، فإمّــا كان الخــير، وإمّــا كان الــشرّ، عــلى أيّــةِ حــالٍ هــو يُــدرك أنّ الخــيرَ أجــدَى، أنّ الخبيثــة في حاجــةٍ إلى فــداءٍ، قربــان، ضحيّــةٍ مــا.

كان؛ عــبر هــذه الأفــكارِ، يتأمّلهــا، لا ذنــب لهــا، هــو يعــرف، ولكنّــهُ -أراد أن يــصرخ- لا ذنــبَ لــه أيضًــا، ينتظــر وينتظــر، وإذا جــيء بالخبيثــةِ هكــذا فليكــن.

ســامحيني؛ هكــذا كان يهمــس لهــا وهــو يفحصهــا بعينيــه.

التشـل طوريّتـه مـن كـوّة الجـدارِ، فليتمّـم الأمـرَ بنفسِـه،
٨٩ـاه انتظـارًا، حـشّ بهـا الأرض، وسـاقا البنـت مـن خلفِـه
ا.حشـان عــن مسـتقرّ، كانـت قصـيرةً فلـم تصـل سـاقاها
ا لأرض، كانـتْ مكـوّرةً في حشـايا الكنبـةِ، التـي راح خشـبُها
ز زك، والبنـت تحـاول أن تتملّـص، أجـل يشـعر بهـا، فيـما
ي ضرب بالطّوريّـة أكـثر، فتنفتـح البـئر، ويعتريـه إحسـاس
الوصـول، بلـوغ المُنتهَـى، وتحقّـق المُشـتَهى، يـضرب الأرض،
فتفسّـخ، ولم يكـن يعـرف وهـو يـضرب أكان الـذي يُغـرق
وجهـه عرقًـا أم دمعًـا؟! لكـن هـل يعنيـه توصيـف المعنـى
في حـين انفلـت الوحـش مـن عقالِـه؟!

ضربـة، فأخـرَى، تنشـقّ الحفـرةُ لآخرِهـا، يتراجـع، يجـاور
البنـتُ عـلى الكنبـةِ، تسـند رأسـها عـلى كتفِـه تسـتجديه
العفـو، يزيـح كتفـه عنهـا، ودخـانٌ يخـرج مـن الحفـرةِ،
لم يكـن بخـورًا، ولا غبـارًا، ولا لـه رائحـةٌ كالتـي توافقـت
عليهـا أنـوفُ البـشرِ، بـل كانـت لـه رائحـة الحلـم، حلمـه
فقـط، حلـم «سـالم»، الـذي كلّـما كاد يبلغـه تمنّـع عليـه
وتدلّـل، حلـم «سـالم» أخـيرًا، هـا هـو ينبـذر أمـام عينيـه،
مـن الحفـرةِ، حلمـه يتمثّـل كيانًـا مـن بخـارٍ، بخـار دافـئ،
يستبعده مـن المشـهد، يغيّـم الأشـياء أمـام عينيـه، ويحضّـن
مقلتـه بسـاترٍ رمـاديّ.

الحلـم يفصلـه عـن البنـت، وعـمّا يجـري، لا يسـتطيع أن
يُبصر، لكنّـه سـوف يسـتبصر، يسـمع صُراخ البنـتِ، لهـاث

المارد، صخب الإثم، يسمع كلّ شيءٍ بوضوحٍ، ويتسمّ، منتظرًا، كالذي ينتظر نهايةً تراجيديّة مُبهجة، كالذي ينتظر ولادة حلمِه، بلَى؛ كلّما هلك حلمٌ وُلد آخر، طالما للخيال رحمٌ لا ينضب، وصوت البنت يجيّش في داخلِه كلّ الأسَى الذي دام على هذه الأرض.

يسمع صوت احتكاك الجسدين، يسمعه أسطوريًّا، لا يُمكن التّراجع عن الإثم الآن، يُفزعه ارتطام المارِدِ بجسد البنتِ، يودّ لو يرَى بعينيه ما يحدث، الدّخان قاتم، يضمّ في سحابتِه كلّ تفصيلةٍ، لا تهرب التّفاصيل عن سترِها، الظّلامُ يطوّق بصرَه أيضًا، ليس أمامه إلّا مجاراة الوقائع المختلَسة بالمراقبةِ علَى جهلٍ، يلمّ ساقيه إليه، وينتظر، يرتعش، يشعر بالنّار، بالحُطام القادم.

لا يطيق رائحةَ جسدِه، ولا رائحةَ أنفاس المارد المحمومةِ، يتقلّص، يُفرِغ ما في بطنِهِ مِنْ صمودٍ، تتنمّل قدماه علَى وهنٍ، تصبح الجدرانُ الأربعةُ التي تُحيط به كأنّها سياجٌ رباعيٌّ مغروسٌ في عِظامِ صدره.

قالوا بدأتْ الأرض بالرّماد، بالرّياحِ، بالرّمل والحجر والطّين، بالأسطورةِ، بدأت الأرض بالأسطورةِ، وُلد الحلم القديم بالبشرِ، بالإعمارِ، من الشّمسِ، كحلمِه الذي يولد الآن من النّارِ، ألم يكن الحلم كتلة خابية؟! ألم يحمل الغواءُ بذورنا؛ نحن البشر؟!

•امون»: سيصبح بعد الآلهة كائنٌ يسمّى الإنسان، أ. الوحش بالأحرَى، لم يولد إنسان على هذه الأرض، بل ا... م مسوخًا، وحوشًا، أولستم تعرفون؟! لكن المسوخ ,ا ا. بلا هويّة، وسينحسر الحلم بالإنسان في آخر بقعةٍ الامةٍ من هذا الكون، سيصبح الإنسان مجرّد وهمٍ، ااا لة من شرّ، سيصبح المعنَى حبيسًا في هذه البقعة الم.مة المخصّصة لكلّ من ضلّت نفسُه، طاقة الشرّ وف تسود هذا العالم من بعد[١١].

لم يكن الدّخان قد انبلج، لكن الحيطان بدت " شر، تستوي، يرمّز عليها بنقوشٍ تضوّي، على كلّ الد.دران، فوق كلّ المساحات، كان نقشٌ وحيد يُقدّ . ١.وبّا مشتعلًا واضحًا:

ومع بدء تلاشي الدّخان، رأى المارد، كانت عيناه حمراوين، كأنّهما موقدان، رأسُه تصل إلى السّقف، وجسدُه مفتولٌ أسود، بصَم المارد بأصابعِه على الجدران، مرّة، ومرّة، كان الرّمز يكرّر نفسَه كلّما بصم، وكان المارد ينفث النّار إلى السّقف فيطلسمه، برموزٍ غريبةٍ، جميعها مكتوب باللّغةِ المصريّة القديمةِ.

تقهقــر إلَى ناحيــةِ البــاب، أدرك الرّمــز، «رع»؛ إلــه الشّـمس، ودون أن يفتـح المـارد فمَـه سـمع صوتَـه في رأسِـه:

- اتبـع «رع»، تَكن خبيئتُك.

لم تكــن لغــةً يُمكــن تفســيرها، لكنّــه فهمهــا، عــرف معناهــا، ولمّـا صفـا الجـو مـن الدّخـان تمامًـا بحـث بعينيـه عــن الفتــاة، لم يجدهــا، صحبهــا الحــارس معــه، إلى بطــن الأرض، ابتلعتهــما الحفــرةُ، واختفيــا.

كلّ الــذي رآه «ســالم»، كان، بقعًــا مــن دمهــا، تناثــرت عـلى الأرض وعـلى الجـدران، ولمعـت بلمعـان الرّمـز النّـاريّ، كان «رع» هنــاك، عــلى الجــدار، محفــورًا بختــم المــاردِ، وبوشــمِ الــدّم!

الطّوّاف

آخر عهدي بجدّي عذّودة.

أبلغونا أنّ الرّجال والنّساء هناك على ضفّة النّيل يجلبون غريقةً بالعدّيد والنّواح، الغجر فُقدت لهم بنتٌ منذ يومين فظنّوا جرفها النّيل، كانوا قد بحثوا عنها في كلّ البلدِ، دون جدوى، واقترح عليهم شيخٌ أن يجلسوا على ضفّة المياهِ يستدعون جثّتها؛ هذا لو ظنّهم أصاب، وكان لزامًا أن يحضر جدّي، إنّه كاشفٌ ومكشوف له.

جدّي يرتدي جلبابه الصّوف، ينفضه بيدِه، يتأبّط ذراعي بعْد أن يلفّ عمامته على رأسِه، يمتطي -في مشقّة عجوزٍ- حماره، بعد أن يسعل سعلةً طويلة متقطّعة، ثم يزفر متنهّدًا، وهو يتملّى بعينيه أسراب الطّيور التي تتدافع في السّماء، بعدها يشدّني من يدي لأركب خلفه.

يعدل جسمه على ظهر الحمار، ويمسك اللّجام يوجّهه، فيسير بنا الحمار على مهل، أحوّطه بذراعيّ من خلفِ.

عند مرمى البصر البعيد؛ تتشابك سحبٌ من غبار، ونسمع بالكاد أصوات الرّجال التي لم نميّزها من تخالطها، وجدّي يضرب بكعبيه الحمار يحثّه على أن يهمّ قليلاً لنلحق بالسّائرين.

عندما بلغنا ضفّة النّيل، استقبلوه بأن وقعوا على يدِه يقبّلونها، هرول إليه أصحاب الغريقة، كان جدّي في مثل هذه المسائلِ حذرًا، تحديدًا فيما يخصّ جلب جثّةٍ أو استعادةِ مفقودٍ، إنّه الموت، لا حيلةَ لرجلٍ أمامَه؛ طالما قال جدّي هذا.

اكتفى بالمواساةِ، وقراءة القرآن، والابتهال، وجلست نسوةٌ على الضفّة يعدّدن، وينوّحن، ويرمين في مجرى النّهر قرابينًا، أطعمةً وفاكهةً وسنابل قمحٍ، وحولهنّ

الرّجـالُ بملامـحِ الحـسرةِ والأسَى، ولمّـا انقـضَى النّهـارُ، انصرفـتْ الجمـوعُ عـلى موعـدٍ في صبـاحِ الغـدِ، سـيعاقرون ضفّـةَ النّيـلِ لسـبعةِ أيّـامٍ كاملـةٍ طيلـة النّهـار، ثـمّ تكـون الجنـازة في كلّ الأحـوال، سـواء أخرجـوا جثّـةً مـن عدمِـه.

في هـذه اللّيلـةِ؛ رأيـتُ، فيـما يُـرَى بـين حـدّي اليقظـةِ والحلـمِ، الأرواح الملعونـة، مـرّةً بعْـد، ورأيـتُ جـدّي للمـرّة الأخـيرةِ.

كنــتُ نائمًــا، ثــم بــدا صــوتٌ ينبّهنــي أن أصحــو، كان الصّــوت يهمــس:

- «طوّاف»، موعدُك.

سرتُ بهـدوء وحـذَر نحـو النّافـذة الواطئـة، خشـيتُ أن يسـتيقظ أحـد عـلى صـوتي فينقطـع تربّـصي بالصّـوتِ في الخـارج، أزحـتُ بأناملـي خـوص النّافـذة وولجـتُ بـرأسي إلى الهـواء، كان صقيـع الهـواء لاسـعًا.

رأيـتُ جـدّي يخطـو داخـل المعبـد ومـن حولـه الأرواحُ تلفّــه، وقامــاتُ الأشــجار تبــدو مِــن خلفــه كالحــرّاس، والصّــوت الــذي همــس لي فأيقظنــي، عــاد يلــحّ:

- موعدُكَ يا «طوّاف».

علـى ترقّـبٍ خرجـتُ، كنـتُ حـذرًا، والشّـغف يسـكن حـواسي، أدركـتُ أنّ الصّـوت اسـتدعاني كما اسـتدعى الأرواح الملعونـة، التحقـتُ بجـدّي، سرتُ معـه، جلـس داخـل المعبـدِ فجلسـتُ بجـوارِه، كانـتْ السّـماء ضبابيّـةً، قـال جـدّي وهـو يربّـت عـلى كتفـي:

- لعلّـك لا تعرف سرّ اسـتدعائك! أنت العنصر المفقود.

- أيّ عنـصرٍ يا جدّي؟!

- ليكتمـل الطّقس.

ولم يضـفِ، كانـتْ الأرواح قـد بـدأتْ تنزلـق إلى أعـلى لتتجمّـع كسـحبٍ عنـد منصّـة الملـك المقدسّـة، في هـدوءٍ وبـطءٍ، كأنّهـا مقيّـدةٌ إلى حتـفٍ، كمصـيرٍ غرائبـي، لم يشـملني فهمـه، جـدّي أمسـك بي يطمئننـي، وكانـتْ المنصّـة قـد أخـذتْ تضـوّي، ومـن حـولي راحـتْ الأعمـدة تشـتعل نـارًا، وفي لحظـةٍ عجائبيـةٍ، انشـقّتْ المنصّـة عـن مركـبِ الإلـه «رع».

مركـبُ الشّـمس تبـزغ في أواخـر اللّيـل، تخـرج مـن أحشـاءِ المنصّـة المقدّسـة، الأشـجار تتحـرّك، تمثال حجـريّ يتجسّـد حيًّـا، ويطـوّف حـولي، يهمـس جـدّي:

- أنـت العنصر المفقود.

جـدّي يطـير إلى السّــماء، بــدا تحــرّر مــن جســدِه، والسّــماء تنــزف دمًــا، وصوتُــه يــردّد:

- أنت «كا»[١٢]..

أتمــزّق، تتراخــى أطــرافي، ومــوج «حــابي» يجــيء مــن ناحيـة الأفـق هـادرًا ليُغـرق قلـب المعبـد، ويطفـئ اشـتعال أعمدتِــه، فيــما كنــتُ لم أزل أتمــدّد، أتمــدّد، وكنــتُ، قـد تحوّلــتُ إلى شــجرةٍ، ســكنتْ طـرف المعبــد، لكنّهــا شـجرةٌ ظلّــتْ تنبــض، بتكليــفٍ مقــدّس.

في هــذه اللّيلــةِ، لم يكــن حلــمًا، كان كشــفًا، في هــذه اللّيلــةِ، مــات جــدّي، وأظلمــتْ السّــماءُ مــن بعْــدِه، وكان الـشّرُّ.

سالم

وهكذا؛ بدا الأمرُ خزعبليًّا لا نهايةَ له.

تخترقه «الشّاويشة» إلى فيما خلف ظهرِه، ومن ورائِها تهرول كلّ التّفاصيل الظّلاميّة، تخترقه وتشدّه بعْدها، كأنّه معلّق من ظهرِه في قاطرةٍ تمضي بسرعة الرّيح، نبت لها قرنان من حجرٍ، وصار وجهُها على وجهِ الآلهةِ القديمةِ المنقوشةِ على جدرانِ المعابدِ، وبدا جناحاها قُدّا من طينٍ.

.تطوّح جسدُه الأشبه بالمطّاطِ، وهذا العالم الذي ،ودر به إليه كان بلا ألوان، مجرّد درجاتٍ من الظّلامِ، ..ه يستطيع أن يرَى فناءَه، يستطيع أن يرَى الحقولَ ال...وداء وهي تُفترَش بالدّم، كانتْ «الشّاويشة» تُدّفق .ن فمها الدّمَ فيجري إلى الأرض، يجري إلَى الحقول ال...وداء، يصبح الدّم بديلًا عن الزّرع، تمتلئ الحقول ..بدانٍ من الدّم، ثمّ و «الشّاويشة» تطير إلى حيث لا محطّ، تتراقص، بدتْ ثملةً، وإن كان صراخُها كصراخِ ..قاءٍ تُبعث من رمادٍ، وكلّ الأشياءِ تطير معها، بعْدها، ،هو مِن ضمن، صار «شيئًا»، أشبه باللّا شيءٍ، من بين الأشياءِ التي امتدّت لتصنع جسرًا إلَى الضفّة الأخرَى، ن يُمكن أن تسير عليه «الشّاويشة»، في قرارٍ أنبيء به، اخل حواسّه، ولمْ يستوعبه.

كان يعرف أنّ الشّرقَ يخلو مِنْ الأساطير، لا يدري لمَ اريد «الشّاويشة» أنْ تعبر إلَى هناك!

المعبر يتجسّم فوق مياه النّيل، قوامُه الأشياء، التّفاصيل، الظّلام، وشكلُه دخان.

ينفلت من قيدِ «الشّاويشة»، يُترَك بإرادتِها، يصبح هائمًا، مرفرفًا، لا يحطّ على أرضٍ ولا تدنو منه سماءٌ، ورذاذُ الماءِ ينفجر من حوله، وفي لحظةٍ، بينما «الشاويشة» وأتباعها الظّلاميون يعبرون إلى حيث البرّ

الشّرقـي، تخـرج مـن قلـبِ النّيـل نافـورةٌ، شـيئًا فشـ.!!
تتشّـكل جسـدًا عملاقًـا، شـفّافًا، تُـرَى عـبره التّفاصيـل، في
يـدِه رمـحٌ أزرق، وعـلى رأسِـه تـاجٌ مـن الحشـائش، تصيـم
«الشّاويشــة» بانزعــاجٍ مباغـتٍ:

- «حااابي»[١٣]..

يضربهـا بالرّمـحِ في صدرِهـا، تتقهقـر قليـلًا، ثـمّ سرعـان مـا
تعـاود لمّ أجـزاء جسـمِها التـي بـدت تتمـزّع متفرّقـةً، كأنّهـا
طاشـت ثـمّ عـادت للحظـة مـا قبـل الشّـتات، فتنطلـق نحوه
محلّقـةً، تدخـل إلى جسـدِه الشّـفاف، تخترقـه، يتلاحـمان
معًـا ويـدوران إلى الأعـلى بشـكلٍ حلـزونيّ، يـدوّي المـاء.
المـوج يعلـو ويهبـط، يـرى «سـالم» الرّغـوة تسـدّ الأفـق.
وقـد انحسر وعيـه القديـم بالأشـياء، وعيـه البـشريّ، حـاول
أن يتحـرّك بـلا جـدوى، مـا زال مُسـاقًا، مُجـبرًا عـلى اتّبـاع
عبثيّـة هـذا العـالم، يتقلّـب بـين الرّيـم الهـادر، كـما يتقلّـب
كلّ شيءٍ، تيـارات المـاء تتصـادم، تتصـارع مـع «الشّاويشـة»،
ويصبـح للـماء أيـادٍ، تصفـع، تسـطو عـلى الأفـق، يسـبح
الأفـق في المـاء، كأنّهـم داخـل بالـون كبـير، تنعكـس جاذبيـة
سـائر الأشـياء، فيحلّـق مـرّة إلى أعـلى، ومـرّة إلى أسـفل،
وفـق إرادة المعركـة.

تفـرد «الشّاويشــة» ذراعيهــا بعــرض الأفــق، يتشــكّلان
أفعــى كُـبرى مجنّحــة، مثــل وحــشٍ أفلَــت مِــنْ أسـطورةٍ

... د، تحاوط «حابي»، تلتف عليه وتغطّي جسدَه،
... الماء بلسانِها وهي تنفث دخانًا، «حابي» يشرع
... النهر، وفي حين يبدأ كلّ شيءٍ يهدأ، والجسرُ يمتدّ
... أخرَى ليصل الغرب بالشّرق، تنشقّ بطن النّيل
... صوتٍ يجلجل:

«أبوفيس»[١٤]..

... الأفعى، تلمّ أذرعتها ولسانها وأجنحتها، تتراجع
... جسم «حابي»، ينتثر الرّذاذ ثانيةً، يستعيد «حابي»
... ه، يتحرّر منها، يصبح المَدُّ الذي يُغرِق كلّ شيءٍ،
... لم أمواجُه في غضبٍ، يواصل ارتفاعَه حتى يكاد
... ل مبلغًا من السّماءِ لا يحدّه بصرٌ، يزوم هائجًا، كأنّ
... وته الرّعد، تستيقظ كلُّ الحواس فجأةً، يشعر «سالم»
... الألم، كلّ الألم يتدفّق إلَى أوصاله المطّاطيّة، يدور مع
... ا يدور في فزعٍ، يبدو «حابي» ملكًا مهيبًا شنّ حربًا
... روسًا، وقد تقدّم في المعركةِ إلى حدٍّ لا رجعةَ منه،
... قافز حوله أقواس قزحٍ، تتألّق على جسدِه الألوان
النهاريّة، يتكاثف قوامُه أكثر، تتطوّح جلاميدُ صخرٍ
... هو قبّة السّماءِ.

يتهاوَى الجسرُ كقطع ثلجٍ تتكسّر، تتساقط الكائنات الظّلامية تباعًا في أديم الماءِ، تتساقط كأنّها مشدودةٌ بسلسالٍ إلَى أسفل، ثمّ يتباعد الماءُ رويدًا ليصنع فجوةً

في عمـق النّيـل، يخـرج منهـا ضـوءٌ غامـرٌ، بلـونِ الذّهـب.

كان «رع»، الـذي أتـمّ رحلتـه اللّيليّـة عـبر اثنتـي عـشرة بوّابـة في العـالم السّـفلي، مصارعًـا الفـوضَى والـشّرّ، واقفًا على مقدّمـةِ مركبِـه الذّهبيّـةِ، وفي يـدِه رمحـه الذّهبـيّ. تـدور حـول الرّمـح أسـماك «آبدجـو»[١٥] الزّرقـاء، تحرسـه، لم يكـن «رع» يرتـدي إلّا الأشـعة، وهيئتـه عـلى هيئـةِ شـمس عفيّـةٍ لا تقـوَى الأعـينُ أن تقيـم البـصرَ نحوهـا.

إنّـه «رع»، يطلـع بمركبِـه مـن قلـب المـاءِ كأنّمـا ينبـذر، ومـع طلوعِـه، لا يكـون ظـلام، ولا أفعـى، ولا «شاويشـة». يـبرق الكـون مـن جديـد، بينـما تغـادر الكائنـات الظّلاميـة محيـط هـذا العـالمِ النّـورانيّ، لتحـلّ إلى أسـفل الأرض[١٦]، في عالمهـا التّحتـيّ.

(٢)
شَرٌّ هاربٌ مِنْ أسطورةٍ

المسحور

النّيـلُ تابوتُه الذي استلقّى فيه علَى قسرٍ.

بـدأ الـشّرُّ عـلَى هـذه الأرضِ بالغـيرةِ، إذ أودَع «سِـت»[17] أخـاه «أوزوريـس»[18] فِي تابـوتٍ بحجّـة الاحتفـال، فصـدّق الأمـر، ونـام فِي التّابـوت، ثـمّ كانـتْ أشـلاؤه متفرّقـةً مـن الجنـوبِ للشّـمالِ.

كان النّيلُ يمضي بأشـلائِه يوزّعها علَى «مصر».

أيُّ شرٍّ يُمكن أن يجعل النّيل، مرّةً أخرى، مقبرةً؟!

يتقافز الأولاد، يُفتِّلون بأقدامِهم الطّريق الفاصل بين بيوتِهم والنّيل، ومن خلفهم يغلّل معبد «الكرنك» بأعمدتِه عنقَ السّماء، وهم يستعرضون براعتهم في الفكاك من السّيارات المارّة، يقف أحدهم أمام واحدة متباهيًا، ثمّ لمّا يقترب سائقُها للدرجة التي يكاد يدهسه، يقطع الولد الطّريق بعيدًا في وثبةٍ طويلة، يغيظ السّائق، فيبرطم السّائق ويشتم، ويستكمل طريقه وهو يُشيح بيدِه.

يتجمّعون على حافّة النّيل، يجلسون أولًا يدخّنون التّبغ الرّخيص، ويخطّطون، يتجادلون كأنّهم يستعدّون لمباراةٍ، ثمّ يخلعون ملابسهم، يتسابقون إلى القفز من على حاجزٍ خشبيّ أُنشِئ كي ترسو عليه المراكب الشّراعية، يصبحون جميعًا في ذمّة الماء.

الماء باردٌ، والوقت في أصيل اليوم، يضربون الماء بأيديهم كأنّهم ينفّسون عن غضبٍ مكتومٍ، الماء يتحرّك من حولهم، يرتطم بالعازلِ الخشبيّ فيخفق، يتصايحون، يغرغرون أفواهَهم بالماء، يبصقونه على وجوه بعضِهم البعض، وعلى الضفّة الأخرى ترفرف الشّجيرات النّابتة على جوانب النّهر، يؤرجحها النّسيم، يتدرّج خضارُها إلى لونٍ رماديّ ضبابيّ كلّما أخذتْ الشّمسُ تغطس

،،ا،هـا، مودّعـة الأفـق.

،اقترح أحدهم:

تعالـوا نعدّي الغرب.

الموج عال.

استرجل.

عـدّ وحدك لو جدع!

يتشـاورون، لكنّهـم يخشـون المجازفـة، خصوصًـا مـع ا..مرار الأفـق إيذانًـا بغـروب الشّـمس، فيقـرّرون اسـتكمال السّـباحة عـلى هـذه الضفّـة، يتركـون أجسـادهم للمـوج ولا تظهـر غـير رؤوسِـهم، يحرّكهـم المـوج وجهـة المـرسَى، ،،لقُـون، تسـتقرّ حركـةُ أجسـادِهم وهـم مستسـلمون المـوج، ثـمّ فجـأةً تتقلّـب بهـم الأمـواج، ينازعـون، لكـنّ النّهـر ينفـرج إلى نصفـين، كأنّ قاعَـه انـشرخ.

تكفّنهـم ألسـنةُ المـوجِ العاتيـة، ترتطـم أجسـادُهم بالمرسى الخشبيّ، يُعلّقـون في المـاء الصّاعـد لأعـلَى يتلاعـب بهـم، يُفزعـون، يرتفعـون تـارةً، ثـمّ ينخفضـون، ولمّـا يبـدو المـرسَى تحـت أقدامِهـم، لمّـا يشـدّون بعضهـم واحـدًا تلـو الآخـر إلى الشّـط، وعنـد انشـطارِ المـاءِ، يرونـه متجسّـدًا

ضخـمًا يقـترب مـن عِنـد منتصـف النّيـل إلى الضّفـة، تمـلأ جسـمه الرّغـوة، ويتسـاقط منـه السّـمك والحشـائش، ويتطايـر نحوهـم الـرّذاذ، كأنّـه يتثـاءب.

تابـوت الماء المُقفول انفتح.

يركضـون، لا يلملمـون ملابسـهم، يصعـدون إلى الطّريـق، عرايـا، وأحدهـم يـصرخ:

- «المسحور»[١٩]!

الطّوّاف

بـدنُ الطّريـق يصفـو مـن السّـائرين، الشّـمسُ تغـازل رأس التّمثالـين وهــي تودّعهـما، تربّـت عليهـما، فكأنّمـا تمنحهـما وعــدًا بالسّــطوعِ في الغَـدِ، يتجـدّد كلّ مغيــبٍ.

أحسّـس على القِرط، وعلى حِجاب أبي.

تـسرح عينـاي فيـما وراء الشّـواهد الحجريّـةِ التـي تترامَـى في الرّقعـةِ الرّمليـةِ العازلـة بـين الطّريـق والتّمثالـين، ليـس أقسَى مـن الذّكـرى، تركنـي أبي منـذ سـنواتٍ ولم يـزل الشّـوق عـلى حالِـه.

قـال لي أعمامـي فيـما بعْـد، عندمـا أدركـوا أنّي قـادر ع
فهـم مجريـات الوقائـع بملابسـاتِها:

«كان أبـوكَ أكبرنـا، كان زينتنـا، وأفضـل الرّجـال، لمّـا
أصابـه المَـسُّ بذلنـا كلّ طاقتنـا، كان يرتجـف بيننـا، فيُسـقِطه
في أيدينـا، لمْ يـداوِه حكيـمٌ، ولمْ ينفـع معـه لا شراب ولا
طعـام، قرأنـا عـلى رأسِـه القـرآن، ولمْ يفارقـه المسّ، فخرج
إلى الجبـل، وذعتنـا أمّـك كأنّهـا آخـر رحلـةٍ، وقلنـا لـو أن
جـدَّك بيننـا مـا اسـتعصَى عليـه مـسٌّ ولا داءٌ، لكنّـه القـدر

صعدنـا إلى الشّـيخِ «حسـيب الجبـل»، ترافقنـا الذّئـاب
وبـدا جسـدُ أبيـكَ ضامـرًا، عـلى غـير مـا اعتدنـاه مـن قـوّة
وعافيـةٍ، حملنـاه بالشّراكـةِ وقطعنـا المـدقّ الطّالـع إلى بيت
الشّـيخ، كان «المَـسرَى» عـلى سـنّ الجبـلِ، خـرج الشّـيخ
ودلّنـا إليـه بمشـعلٍ، واسـتقبلنا يترحّـم عـلى «الطّـوّاف»
الكبـير، شـخلل بأجـراسٍ معلّقـةٍ في رقبتِـه وهـو يلـوّح
بالمشـعل يُـصرِف الذّئـابَ، ضـمّ أبـاكَ بـين ذراعيـه ودخـل
بـه، تبعنـاه، سـقاه خليطًـا سـاخنًا مـن الأعشـابِ والـدّوم
فاسـتدفأ، طلـب منّـا أن نأتيـه بفـرعٍ ناتـئٍ مـن شـجرة
الجمّيـز الحارسـة، وزعزوعـة قصـب، وحزمـة حلفـاء، قـال
اتركـوه سـأقرأ عليـه.

هبطنـا، كانـتْ الشّـمس راحـتْ تغيـب، اسـتغرقنا وقتًا
طويـلًا حتّـى بلغنـا شـجرة الجمّيـز، لمْ يكـن بهـا فـرعٌ

.. أو عطِب، ولمّا حاولنا أنْ نقتطع منها فرعًا صغيرًا
... سنا بها تزوم، تكالبتْ علَى فرعِها، صفعتني به،
.. أنّ وجهي انجرح وفصد دمًّا، وشعرنا أنّ الشّجرة
... ماتتْ دون فرعِها، بلْ صارتْ لها ملامحٌ تكشّر،
... سخونةُ جذعِها وجوهِنا، كأنّ غضبًا عارمًا
... دها، في الوقتِ الذي تيسّر لنا أنْ نجلب زعزوعة
... سب وحزمًا من الحلفاءِ، وعاودنا تلبيةَ طلب الشّيخ،
... تطعنا أن ننتزع فرعًا علَى عنوةٍ، ثمّ ونحن نقصّ
... ريقَ هرولةً إلَى الجبل، بدتْ تضيق علَى أقدامِنا،
... إذا بلغنا الجبل عِيد بنا إلى أوّل الطّريق، مثل الذي
... ور في دائرةٍ مقفلةٍ، وإذا بالشّيخِ يطيرِ إلينا من فوق
... الجبلِ، وكان وهو يهبط يصيح، ويهبط علَى عجلٍ، ثمّ
... استوضحنا صياحه، وفسّرناه، لمْ نلتفتْ للوراءِ، بلْ
... صارتْ الهرولةُ فرارًا، كان الشّيخُ يصيح: الأفعَى مِنْ
... خلفكما!».

المسحور

لمْ أستهَجِن الأمر، بلْ توافقتُ معَه.

كأنّ العالم طيح به، وظللتُ وحدي، كأنّ قيامةَ البش
أبادتهم، وتُركتُ مِنْ بعْد.

لستُ أعرف كيف أوتي بي على هذه الهيئةِ ولا كيف
بُعثت بمثل هذه الحراشِف والرّيم؟ لكنّهُ إحساس
فريد.

سُجِّيتُ في عمق النّهرِ، أغلِق عليّ، لا أدري لأيّامٍ
ام لأعوامٍ! فجأةً تقلّبتْ بي بطنُ النّهرِ، امتلأتُ بالماءِ
...فاخ قِربةٍ لآخرِها، فوجدتني أطفو، ثمّ استحال النّهرُ
...وقًا كالبرزخِ، وصار ثمّة فرقانٌ بين موجين من الماءِ،
...دتْ على بطءٍ، وموجٌ يندلق على الضفّة الغربيّةِ،
وا...ر على الشرقيّةِ، كانتْ ساقاي ترتفعان بي، يتّسع
ل قاعُ النّهرِ، أثبّت قدميّ فيه، وأتطاول مثل نافورةٍ
...ائيّةٍ، وأسيلُ على جانبي النّهرِ، كالذي خرج من
...رافةٍ لا يُمكن الظّنُّ في حقيقتِها.

إنّ هذه الرّحلة المُلتبسة، مِنْ عمق النّهرِ، من عالمٍ
.. فليٌّ، إلَى قيامٍ، بدتْ كطرفةِ بصرٍ، لم أشعر بزمنٍ ولا
أ...داث، بلْ كلّما صعدتُ رحت أرتطم بالألغازِ، أصطدم
...دهشةٍ بعْد دهشة، أجوس في الأنحاءِ، لا يوجد غيري
...حتضن بين ذراعيه كلّ التّفاصيل، كأنّي سماءٌ كُبرَى، كأنّ
...ل العالم أطراف وأنا قلبٌ نابض، هامش وأنا متن.

في رحلتي إلَى أعلَى حاوطني صغارٌ يرتدون جِلدَ
السّمكِ، وجوهُهم بلا عيونٍ، أفواهُهم مستطيلة،
تزاحموا حولي، أرغموني علَى الصّعودِ إلَى حيث يريدون،
تعثّرتُ بين أياديهم، ظلّوا يجذبونني ويدفعونني لفوق،
ثمّ انطبق قاعُ النّهر كما انشقّ، واختفى الصّغار، فيما
كنتُ هناك، يمتلئ بي فراغُ الأرض.

مـا أطـرَف البعـث! تخيّلتنـي عُلِّقـتُ في العـالم السّـفلي بـلا قيـامٍ، أهـذه هـي خبيئتـي؟! ربّمـا.

وصلـتُ بضخامتـي إلَى حـواف السّـماءِ، وهطلـتُ علـى البيـوتِ رغـمًا عنّـي، كإعصـارٍ جبّـارٍ، السّحاب عـبرني، امتلأ بي، وصرتُ ريحًـا، عصّافـةً، زفـراتي صـوتُ الرّعـد، عينـاي تطقّـان برقًـا، والنّـاس تحتـي يهرولـون فزعًـا، يحاولـون النّجـاةَ، لا يعرفـون أنّي لا أقصـد بغيًا، مثـلي مثلهـم، مُندهش فقـط مـمّا آل إليـه مصـيري، ورأيـتُ -بينـما تتسـاقط من جسـدي الأسـماكُ- انعـكاسي عـلى صفحـةِ السّـماءِ، أيُّ إرادة تلـك حوّلتنـي؟! أهـي إرادةُ القُدامَـى؟! أهي إرادةُ السّحر الأسـطورة؟! لا أعـرف، كنـتُ أقطـع الشّـوارعَ والـدّروب والغيطـان فيُغـرِق المـاءُ كلّ شيءٍ، كأنّي الميـاه الأزليّـة التي تنحـدر مـن عـبّ السّـماءِ ليتشـكّل البـشر، كأنّي طوفـانٌ سـيعمّ أرضَ اللـه، وسـيغمر الصّحـاري والبحـور والحقـول والوديـان، ولـن تكـون نجـاةٌ إلّا لمـن اتّبعنـي، أو هكـذا يُمكـن أنْ تـأتي التّصـوّرات، فيـما بـدا أنّي قـد أكتسـح كلّ ما يقـف في طريقـي، وكلّ مـا يعـوق انفـلاتي الخـرافيّ.

أجـل، لـنْ أخطـو عـلَى هـذه الأرض ثانيـةً، بـلْ سـأطير، سـأتحرّر، سـأنبعث وأتفجّـر وأتحـوّل إلَى لـونٍ لمْ يُكتَشـف بعـد، سـأدوم أسـطورةً، لعنـةً، بعثًـا ليـس كمثلِـه بعـث، خرافـةً لمْ تُختَـبر، سـأدبّ، أخـيرًا، بـروز الزّمـن، سأسـتمرّ عـلَى هيئـةِ السّـحابِ، سأسـافر بحثًـا عَـنْ وطـنٍ ملائـمٍ لي

أهطل مثل ماءٍ بطعمِ الذّنوب التي تستوجب الغفرانَ،
.. أرفّ، كما ترفّ العينُ لحظةَ نشوةٍ، سأرفّ وأضحك،
٩السّعادةِ في مهدِها.

سأنسلخ من اسمي القديم، صار «سالم» أثرًا
..رعان ما ستفرمه الذّاكرةُ الجدليّةُ، بلا رجعةٍ، لتُخلّق
الأسطورةُ.

هيّا، قدّموا قرابينكم، اصنعوا الأساطير، احكوني،
،لّقوا بعشي، حالما أتبيّن هذا السّرّ الذي لفظني من
..وفِ الأرضِ إليكم، وليس السّرُّ ببعيدٍ.

الطّـوّاف

«والتـي يتبرّكـون بهـا طاردتنـا يـا ولـدي، صرخ الشّـيخ «حسـيب الجبـل»: الأفعـى مـن خلفِكـم! كان يحذّرنـا، لمْ نلتفـت، عدونـا، والظّـلامُ يلـفّ أعيننـا، لمْ نـرَ «حسـيب الجبـل» فيـما نركـض، بـدا اختفـى فجـأةً كـما ظهـر، بـل ولعلّـه لم يـترك سـنّ الجبـل، لم يـزل هنـاك، في بيتِـه، ونحـن ثلاثـة رجـالٍ وخطيئـة، لمـاذا فكّرنـا في المسـاس ببـدن الشّـجرةِ رغـم معرفتنـا ببركتِهـا؟! إنّهـا الخطيئـةُ التـي سـتتبدّل معهـا الحـال.

ركضنا واشتعلتْ وراءنا الطّريق، كانتْ الشّجرةُ قد ـ‍ـولتْ إلى أفعى تزحف مسرعةً تلاحقنا، ثمّ وبينما استدير برأسِي للوراءِ، إذ كاد الفضول يصرعَني، وجدتها ـلى هيئةِ كالتّصاوير التي حفرها أجدادُنا على ـدرانهم، كانتْ رأسُها قدْ تعملقتْ، وصارتْ بحجم ـلٍ، ولها لسانٌ مشقوقٌ يسعَى خلفنا، تبخّ من فمِها النّار، وتصرخ كألفِ امرأةٍ محزونةٍ، صارتْ عملاقةً يا «ـطوّاف»، لها ساقان كالسّحليةِ، وجناحان امتدّا على ـانبيّ الوادي ففرشَاه بالحممِ، وبدتْ طريقُنا بلا نهايةٍ امنةٍ، بلْ ظننا أنْ قُضيَ أمرُنا، لكنّنا لمْ نسلّم، أخذنا ـجري ونجري، قبضنا على أذيالِ جلابيبِنا بين أسناننا، ومن حولنا جمرٌ ينفجر، وصخورٌ تتهاوَى، وصراخها كالرّنينِ في عُمقِ الرّأسِ، مثل الطرقِ على صفائحِ ـحاسٍ مجوّفةٍ، ولمّا بلغنا أوّل المدقّ الطّالع إلى بيت الشّيخ، بدتْ يئست، استدرنا ننظر إلى أسفل، كانتْ واقفةً وقدْ لمّت جناحيها عليها، ولمحنا ابتسامتها، كأنّما لم تبتغِ أذيّةً، فقط كانتْ تهدّدنا ساخرةً من خوفِنا، وتروّعنا منذرةً ليس أكثر، ما كانتْ تريد أنْ تُهلكنا، وإلّا فعلتْ، حيث كان باستطاعتِها، وهي الجبّارة، أن تفترسنا في غمضةِ عينٍ.

أومأ الشّيخ برأسِه:

- الشّرّ!

جلسنا نتنفّس بصعوبةٍ، تناول منّا حزم الحلفاء وزعازيع القصب وفرع الملعونة، أوقد نارًا، وضع عليها قِدرة فخّار، ثمّ فركهم وصحنهم ورماهم في جوف القدرة، وملأها بالماءِ وغطّاها.

جلس قبالتنا، قال:

- أخشى ألّا يهجع الشرّ ثانيةً، طالما استيقظ في مدينتنا!

- وأيُّ شرٍّ!

- «الطّوّاف» الكبير وحده كان قادرًا على ردعِه.

- رحمه الله.

- بلْ أبقاه.

نظرنا إلى بعضِنا البعض في حيرةٍ، لكنّه ولّى عنّا يقلّب خلطته، مضتْ تفور، وفاحتْ رائحتُها، وكان أبوكَ راقدًا يتدثّر بالألحفةِ، ويئن بصوتٍ واهنٍ، وبدتْ عيناه خابيتيْن، فيما كان الشّيخ يتلو على الخلطةِ، كأنّما يعوّذها، ولمّا تلزّج قوامُها وتماسك، أبعَد القِدرة من فوق النّارِ، وصبّها في طبقٍ فخّاريّ عميق، ولمْ يزل يتلو.

مضتْ دقائق قليلة، برَد الخليط.

سنّدوا أخاكم.

قال الشّيخ، فرفعنا أباكَ بالقدرِ الذي يستطيع أن يكشف الخلطة، وبملعقةٍ ناوله الشّيخ، وراح يتأسّى:

- مالك يا ابن المبروك؟!

قلتُ:

- الجنّ.

- كلّا.. شرٌّ أكبر.

ولمّا اطمئن أنّ أباكَ جرع ما يكفيه، التفتْ نحونا يفسّر:

- الجنّ يُمكن التفاهم معهم بلْ وإحراقهم والسّيطرة عليهم، الذي يسكنه سلطته أعظم، سلطته على الجنّ والبشرِ، شرٌّ مقيمٌ لا يريد الكشف عن نفسِه، ينتظر أن تستقيم له الأمورُ، ويكتمل طقسُه.

- وننتظر نحن أن يموت أخونا!

- الموتُ أمنيةٌ حالمة.

- بالله عليك يا شيخ حدّثنا بما نفهم!

- أنتظـر أنا أيضًا...

كان وجـه أبيـكَ ينـزّ العـرق، بقماشـةٍ مسـحه الشّـيخ، وأكمـل:

- أنتظـر أن يتجسّـد هـذا الـشّرّ، أن يصبـح مرئيًّـا، إنّ مدينتنـا؛ بـكلّ مشـايخها وأوليائِهـا وصالحيهـا، لـن تصبح قـادرةً عـلى محاربتِـه، بـلْ سـتصبح قوّتـه هائلـة، لا قـوّة مثلهـا، رأيـتُ بالأمـس البعيـد شـذرات مـن هـذا الـشّرّ ولمْ أرد تصديقهـا، قلـتُ لعـلّي خرّفـتُ، إنّمـا يمـرّ الوقـت والـشّرُ يسـتحوذ عـلَى الأشـياءِ، يسـكنها فيتمّـم عـبر حيواتهـا تمثّلَـه، ووقـت ينطلـق سـتصبح المعركـةُ عـلَى أشـدّها، أخـشَى فقـط أنْ أمـوت قبلـما أشـهد هـذه المعركـة.

- معركـة! أخونـا يسـكنه هـذا الـشّرّ يـا شـيخ؟! مجـرّد شيءٍ مـن الأشـياءِ التـي اسـتحوذ عليهـا! كيـف لـك أن تعـرف كلّ هـذا؟!

صمـتَ، مدّ يدَه يقول:

- بيـدي هذه أسـتطيع أن أرفع جبلًا لولا أخشَى الله..

ثمّ شخص ببصرِه إلى سـفحِ الجبلِ، أشار بإصبعه:

- أنتـم لا تعرفـون شـيئًا، لا أحـدَ يعـرف، لا أحـد

،..ـتشرف، هــذه الشّــجرة...

وزفر:

أحد جنود الشرّ.

- لكنّها شـجرةٌ مباركةٌ كنّا نتداوَى بها!

لاحت على شـفتيه ابتسامةٌ متحسّرةٌ:

- يـا لخيبتِكُـم! أنتم غافلون يا ولدي.».

المسحور

كانت للقُدامَى سُلطةٌ هائلةٌ علَى الحروف، يستخدمون الكلمات بطلاسِمها، يُدركون كلّ أسرارِها، بل ويحتجزون القوَى الخفيّة بين الإشارات والنّقوش والرّموز.

أستمدّ بعضًا من هذه السُّلطة، لمْ أعد حبيس الرّموزِ، لقدْ استُنهِضتُ، أستطيع الآن أن أقرأ جميع الإشارات المستعصيّةِ، أستطيع أنْ أمرّ بالرّيح على الجدران فأستلهم المصائرَ، أربط الماضي بالغيب،

واسـوف تسـكنني الكلـمات والحـروف، سـوف أصنـع تميمـةً
إعجازيَـةً، لـن يجـوز أنْ يملـك قوّتهـا إلّا طائـعٌ مُختـار، أجـل،
سوف تتعــرّى لي الأسرارُ، كأنّ بي طاقــةً احتياطيَــةً كانــتْ
مدخَـرةً لموعــدٍ محــدّدٍ، وهــا هــي الطّاقــة أُثــيرتْ معلنــةً
عن نفسِـها، طاقـة سـأوجّهها لتحـرّك لي الأشـياء، توحـي لهـا
بأوامـري، مجـبرةً.

أســتطيع الآن أنْ أتشــكّل وفــق هــواي، أصبــح موجًــا
يدفـق في مجــرَى السّــماءِ، يحجــب عنهــم الشّــمسَ، أو
شلالًا ينهمـر عـلى الأراضيَ فيدهسـها، وفكّـرتُ: هـل يُمكـن
أنْ أمتَحــن طاقتــي؛ بشــكلٍ أوسَــع؟!

الطّـوّاف

أرنـب ينبـش الأرض، يشـمّم، ثـمّ فجـوة تنفتـح، تبتلعه
ولا يصبـح لـه أثـر!

أمعـاءُ الأرضِ تمـور، تثـب مـن بطنِهـا، مـن بـين الـتّراب
فأتقرفَـص، أحـاول أنْ أعـثر عـلى الأرنـبِ، بـلا جـدوى، هل
جُننـتُ؟!

التّمثـالان يتأمّـلان الفـراغَ الشّاسـعَ الـذي يحـاصر البـ
وأنـا أدنـو مـن الفجـوةِ السّـاخنةِ التـي تبـثّ بُخـارًا، كأنّه

ـرخٌ شقّ بدنَ الأرضِ.

الرّيحُ هادئة، وعظمةٌ تبرز من تحت التّراب، علَى ـذر أضع عليها أناملي، كانت ساخنةً أيضًا، أهي ـومياء؟! لا أعرف! أهي بقايا ميّتٍ دُفِن حديثًا؟! لا اعرف! خفتُ أنْ أسحبها، كي لا يباغتني طارئ أو سحر، لكن: ألمْ يحصّنّي أبواي من السّحر؟!

فيما قليلٍ، تبدو الأرض كعجينةٍ طينيّةٍ هشّة بدأتْ لفظ أحشاءها، تتزايد الفجوات، ومن كلّ فجوةٍ يقبّ إناءٌ منبعجٌ من النّحاسِ، تصنع الفجوات دائرةً حولي، ولمّا أصبحتْ الفجوات أربعًا، توقّف تقلّب الأرضِ.

أتناول الأواني الأربع من قلبِ الحفائرِ، ولا أكاد ألتقط أنفاسِي، أهو ثراءٌ علَى غفلةٍ؟!

أفتح الأوانيَ، ثمّ أدرك أنّها أواني «كانوبيّة»[٢٠]، كانتْ مصنوعةً على رؤوس أبناءِ «حورس»[٢١] الأربعة، أفحص ما بداخلِها، في كلّ آنيةٍ كانتْ توابيت صغيرة الحجمِ، بعضُها من مرمرٍ وبعضُها من حجرٍ جيريٍّ، وفي قاعِ الأواني أقمشةٌ من خيش، كانتْ ملفوفةً، فككتها، فإذا بمُزعِ أعضاءٍ بشريّةٍ.

دُرتُ ببصري حولي، كانتْ الطّريقُ خاليةً، خلعتُ جلبابِي، خبّأتُ الأوانيَ فيه، وقبل أن أستعيد أنفاسِي،

كانتْ العظمةُ قد راحت تبرز أكثر فأكثر، يدٌ يمنى، ا م
برزتْ يدٌ يُسرَى، تحمل مرآةً ببرواز مذهَّب، رفس
التّراب بقدميّ مبتعدًا، إنّها مومياء، ومن مسافةٍ آم
أخذت أراقبها، كانتْ المُومياءُ ملفوفةً بالكِتّانِ، لمْ يـ
منها غير عينيها، اللّتين كانتا تمشّطان المُحيط حولم
ثمّ توقّفتا عليّ.

بدأتْ المومياءُ في النّهوضِ علَى تؤدةٍ، لملمتُ جلب
وقلتُ ألوذ بالهربِ، لكنّ قوّةً أعاقتني، شدّتني للورا
فسقطتُ على ظهري، اعتدلتُ نصفَ اعتدالةٍ، لمْ أشـ
أمرًا مماثلًا من قبل، وإن شهدتُ بإرادتي كلّ ما يُمكـ
للأحلامِ أن تصنعه من عجائبٍ، أيجوز أنْ تكون أحلام
القديمة مع جدّي حقائقَ؟! أيجوز أنّي عبرتُ المسا
بين عالمين؟!

كلّا، كلّ ما تخيّلتُه مع جدّي محض أوهامٍ، كلّما قا
حكايةً سرح خيالي، كلّما حلّت بركتَه في سحرٍ أو طقس
تركتُ نفسِي للتّصوّرات، كنتُ طفلًا وقتذاك، والأحلام
شريعةُ الأطفال.

المومياءُ تحدجني مرّةً، ثمّ تستدير تطالع مرآتها
مرّةً، وأنا مقيّدٌ في مكاني، قدماي مكلبشتان، صرخـ
بفزعٍ:

- بسم الله الرّحمن الرّحيم.

غير أنّها بدتْ تكشّر، كأنّما تستنكر صرفها، أو ...اولتي في الإفلاتِ من قيدِ سحرِها.

الفرارُ يتعسّر عليّ، والعالمُ ليلٌ، والنّاس انقطعوا عن المرورِ، لن يسمعني أحدٌ، لن ينقذني أحدٌ.

أرمي الجلباب بمقتنياتِه وأجاهد أنْ تتحرّك قدماي، ...بثًا، لا يريدان التّحرك، كأنّهما دُقّا في الأرضِ بمسمارين، ...تمّل يداي، أرتجف، يقشعرّ بدني والمومياءُ تستكمل ...روجها من جوفِ الحفرةِ، اتّسعتْ عيناي وهي ...خمش الأرضَ بعظامِ يدِها تقترب منّي، بسملتُ وعوّذتُ وشهّدتُ، سُدًى، لا تتوقّف، ببطءٍ تدنو، وتدنو، ولمْ تزل تنظر في مرآتِها، كأنّها اطمأنّت لعدم جدوى منازعتي، وأنّي باقٍ هنا بأمرِها لن يُمكنني الهربُ.

تتقلّص عضلات وجهي، فيما صارتْ علَى مسافةِ ذراعٍ منه، واشتممتُ رائحةً نفّاذةً تخرج من فمِها، وحاولتُ الصّراخَ، بيأسٍ، لكنّ صوتي كان مبحوحًا.

كلّ ما استطعتُ هو أن أتناول حجرًا، وبقوّةِ خائفٍ ألقيتها به، أصاب المرآةَ، فجأةً فُزعتْ عيناها، وشبّتْ، والمرآةُ تتحطّم، صرختْ، وبينما تصرخ، سمعتُ أصواتَ رجالٍ يصرخون، كأنّ عشرةَ رجالٍ يصرخون، سمعتُ أصواتًا متداخلةً، أصواتًا جشّةً، وأصواتًا ناعمةً، كلّها تؤدّي نغمةً وحيدةً، نغمة رعبٍ، والمرآةُ تصير فُتاتًا،

تتساقط أرضًا، فيما كانت المومياءُ، بدورِها، تتساقط
تتهشّم، عظمةً عظمةً، وتتحوّل عظامُها إلى غبارٍ أبيض.
رقيقٍ، كالدّقيق المصحونِ، يطير مع الرّيحِ، يطير بعيداً

المسحور

أمــارس جميــعَ الأسرارِ الطّقســيّةِ، أُشرف عــلى العــوالمِ الثّلاثــة: السّــماويّ والدّنيــويّ والسّــفليّ.

بالأمــسِ، كنتــم تقدّمــون الغــزلان والأبقــارَ والماعــز والدّجـاجَ والأوزّ والثّـيرانَ قربانًـا، لكنّكـم، اليـوم، سـتقدّمُونَ، جميعكــم، أضحيــةً بشريّــةً.

آن لي أنْ أختبِر طاقتي علَى سعةٍ..

أتفكّك في السّماءِ، أهوّم سحابًا وماءً وريحًا، أقط م
الوديان والنّيل والمعابدَ، أفرِش بي الآفاقَ، أجاوز الا
الأراضي تحتي، أتقاطر قطرةً قطرةً فوقَ هضبةٍ بوادي
الملوكِ، وادي الموتِ، وادي القبور والجثامين والتّوابيت،
أنجذب إلى بعضي البعض، أستجمع قوامي المتبخّر، أسيل
منّي إليّ، أهدِر، أصنَع بحيرةً منّي على رأسِ الهضبة،
والآن، القرارُ لي.

بسرعةٍ أنحدر، أنحدر طائشًا، أكون سيلًا يكتسح،
يبلّل الصّخورَ، يذلّلها، يفتّتها، أدبّ كلّ ما يقف في
طريقي، أُخضِعه، أجعله جزءًا مِنْ قوامي.

أهبط إليهم سيلًا عاصِفًا، فوق رؤوسِهم، بيوتِهم،
أفيض، أعرّفهم معنى السّلطة القدريّة من جديد،
أمارس عليهم اختباري القُدسيّ، أهبط من على الهضبة
ولا شيءَ يوقفني.

أقتلع الأشجارَ، الزّروع، إنّها القُدرة، الحكمة، المعرفة
التي جُزيت بها على صبري.

يتطوّحون بداخلي، تدور معهم بيوتُهم، يطوّفون
معي في الأعالي، أستلب أرواحَهم، روحًا بعْد روح،
يفطسون مِن قوّتي، تركع الأشياءُ، الأشياء كلّها واطئة،
صاغرة، لا يعرفون كيف جئتهم ولا كيف بُعثت إليهم
كأنّي آخر مسعاهم على هذه الأرض البائدة.

أضـمّ قوامــي، أعجنــه وأفرطــه، أضربهــم، يصبحــون هوامـش، كائنــات نافقــة بقــدرتي.

أهيـج أكـثر، تتوحّـد مشـاعري والدّمـار، هـذا إن كانـتْ لي مشـاعر، أفسّـخ البيـوتَ، الجبـال، أمـزّع أجسـادَهم، الرّحمـة لا معنًـى لهـا، الرّحمـة لفظـة جدليّـة، الـشّرُّ هـو الرّحمـة، لـو يعرفـون!

أقلّـب الأرض، أصفعهـا، أسـتخرج كلّ خبيئـةٍ اسـتعصتْ علَى بـشرٍ، وأبدّدهـا كأنْ لمْ تكـن، أيُّ حـارسٍ يُمكـن أنْ يحرسـها الآن؟! أيُّ مـاردٍ يُمكـن لـه التّسـلّط؟!

جوهر الفوضَى، معنًى الاسـتباحة.

أملك ما بين السّـماءِ والأرض.

أدركتُ كلّ المعاني.

الطّـوّاف

في اللّحظـةِ التـي تُطحَـن فيهـا عظـامُ المومياءِ، كمسـحوقٍ، بشـكلٍ قـدريٍّ، فتذروهـا الرّيـاحُ، تنفتـح بوّابـةٌ فيـما بـين التّمثالـين، كانـتْ بوّابـة مـن ضـوءٍ باهـرٍ، تتألّـق حوافُّهـا بومضـاتٍ كالألمـاسِ، بينـما تتحـرّر سـاقاي مـن قيـدِ السّحرِ.

كأنّ البوّابـةَ الشّـمسُ، كأنّ اللّيـلَ صـار نهـارًا، كأنّ العـالم برمّتِـه يُعـاد بنـاؤه مجـدّدًا.

أُسـتَدعَى، ليـس بينـي وبـين البوّابـةِ إلّا مسـافةُ قفـزةٍ.

..ـزة واحـدة، أصبـح هنـاك، فيـما خلـف المعقـول، أرض لمْ
..لما قبـلًا، أو في سـطوةِ الخيـالِ، ألمْ تُولـد كلّ مباهـج حيـاتي
. نْ الخيـالِ؟! مـا الـذي يعطّلنـي إذن؟! مـمَ أخـاف؟! أمِـن
المـوتِ؟! مـات جـدّي، ومِـنْ بعْـده مـات أبي، ليـس المـوتُ
..بعيـدٍ عنّـي.

أقـوم، ببـطءٍ أدنـو مـن البوّابـةِ، ترعـش، كأنّ بهـا طاقـةً
لم يسـتنفدِها تاريـخٌ، أدنــو كأنّي ممغنــط، وحينــما أدنــو،
.نهــض التّمثــالان، تطقطــق قاعدتاهــما، يشــقّان قلــب
السّـماء، ينحنــي كلاهــما، يمــدّان لي أياديهــما، يكتســب
جســداهما لــونَ البــشر، يُكتسـيا بالجِلــد، ينبـض قلباهــما،
أسـمع دقّاتهـما، ينحنيـان، ويُفسِـحان لي، وهـما يتباعـدان،
طريقًــا.

مِــنْ فــوق رأسِي تسـبح مركـبٌ تلـج إلَى البوّابـةِ، يقـف
فوقهــا عمــلاق مجنّــح، تتبعَهــا كِبــاشٌ وأطيــافٌ ظلاليّــة
رماديّــة، ندنــو معًّــا مِــنْ البوّابــةِ.

أدنـو، تمـسّ قدمـيّ شرارةٌ، وكلّـما دلفـتُ، تبـدّل جسـمي
وتألّـق، كأنّي هيـكل تمثـال يُصـبّ بالذّهــبِ.

وحينـما يصبـح جسـمي بكاملِـه ذهبيًّـا، وأجـاوز بوّابـةَ
هــذا العــالم إلَى الدّاخـل، أسـتدير، تنغلـق البّوابـةُ، وتصـير
خلفـي صحـراءٌ، رمـالٌ ممتـدّة بـلا نهايـةٍ، لا يسـاورني قلـق
ولا خـوف، فقــط الشّـعور بالرّاحـةِ، بالتّحـرّر.

الآن أرَى، فيما لا يُـرَى إلّا لمكشـوفٍ لهـا، أو عابـرٍ إلَى قدرٍ سـماويٍّ، مسـافةٌ مِـنْ ضوءٍ باهـرٍ. كنتُ في أوّلِ طريـقٍ كنقطة بـدءٍ، ليـس قبلهـا ولا بعْدهـا معـالمٌ ولا أشـياءٌ، هِمـتُ وراء النّـورِ، لا زمـنَ ولا مـكانَ ولا رجـوعَ ولا وطـنَ سـوَى النّـورِ. هِمـتُ كأنّي مثـل دخـانٍ رقـراقٍ شـفّافٍ يـسري في الأجـواء بإرادةٍ مُطلَقـةٍ، مِـنْ حولِي أطيـافٌ لا يُمكـن تحديـدُ ملامحِها. بالأحـرَى كانـتْ ملامحُها غائصـةً في أديـمِ الضّيـاءِ، كلّهـا تولّي وجوهَهـا المهـزوزةَ ككثافـةِ غيـمِ شـطرَ البريـقِ، تلـوّح بأيديها أنْ اذهـب، امـضِ، لا تعُـد إلّا ومعـكَ الخـلاص.

تصلنــي، مِــنْ اتّجاهــات متباينــةٍ، أصــواتُ ترانيــمٍ، كاســتجداءِ غفــرانٍ، كالهمــسِ عــلَى خشــيةٍ، لكــنّ النّــورَ يغمـرني، وفي المـدَى قبّـةُ معبـدٍ، رغـم الضّبـابِ، رغـم غشـاوةِ البـصرِ، تُهيّـئ لي نفسَــها، فأخطــو نحوهــا وفي فــؤادي طمأنينـةٌ، فيـما تتفسّـخ، كلّـما خطـوتُ، أفـكاري عَـنْ العـالمِ، أفـكاري القديمـة، أخطـو عـلَى شـوقٍ، وأتجـرّد مِـنْ سـائرِ التّسـاؤلات، كـما لـو أنّي إجابـةٌ وافيـةٌ لـكلّ المعـاني.

روحـي تجلجـل وأنـا أقطـع الطّريـق، والنّـورُ يشـعّ مِـنْ حـولي، وحـواسي تُرْهَـف أكـثر فأكـثر، يسـبح فيّ النّـور، ومِـنْ حــولي، النّــورُ مثلــه كجنــاحِ مــلاكٍ بلــونِ الإيمــانِ، جــليٌّ كتنزيـلٍ أوّلٍ، يلفّنـي النّـور، يتلقّفنـي مِـنْ صفـوٍ لصفـوٍ، ثـمّ يبـدو لي وجـهُ جـدّي مخمليًـا كأزلٍ بِكـر، أصيـح بجوارحـي، بـلا صـوتٍ:

- جدّي أقتفي أثرَك.

- لا تقتـفِ أثري، بلْ اقتفِ السّرَّ.

تتوغّـل حـواسي في الدّهشـةِ، هـي دهشـةٌ أولَى، وفـذّةٌ، كينبـوعٍ نـادرِ العذوبـةِ، فريـدةٌ في تمامِهـا، تسـكب عـلَى خيـالي وداعـةً، أطمـئنُ كأنّي بـاقٍ عـلَى عهـدٍ مقـدّسٍ، وفي الآفـاقِ اسـتدعاءٌ، كُـن، سـاكون، كُـن، ككلّ أمـلٍ مُسـتعادٍ.

كذبابـاتِ المَلـم مـن فضـاءِ النّـورِ لأتجمّـع وأهبـط فـوق الرّمـلِ ثانيـةً.

سـماءُ هـذا العـالم بلـونٍ برتقـاليّ، أطالعهـا بعينـيّ، وأمامـي يصطـف خطّـان مـن نسـاءٍ يرتديـن عبـاءات سـوداء، أمـام كلّ واحـدةٍ لـوحٍ حجـريٍّ تنقـش عليـه رسـمًا، كلّهـن واقفـاتٍ في صفّـين متقابلـين، لا ينظـرن لي، يُبـاشرن نقوشـهنّ، وجوههـنّ كانـتْ ملفوفـةً بطُـرحٍ سـوداء أيضًـا.

أتقـدّم نحوهـنّ، أمـرّ في الطّريـق بـين الصّفـين، أنظـر إلى الأسـفلِ، قبـور محفـورة، قبـور فيهـا جثامـين، وقبـور تنتظـر روّادَهـا، أمـام كلّ امـرأةٍ قـبر، مفتـوح، رفعـتُ بـصري إلى الألـواحِ، كانـتْ النّسـوة يكتـبن أعـمال المـوتَى، يسـجّلنها عـلَى الألـواحِ، بالأزاميـل والمسـامير، فوقهـنّ ترفـرف «ماعـت»[٢٢] وهـي تسـطر بريشـتها أوراقًـا.

صـوتُ ريـحٍ يصـمّ الآذان، لكنّهـا غـير محسوسـةٍ، كان الجـوّ صافيًـا، مشمسًـا بلـونٍ أصفـر، كأنّمـا الرّيـح تهمـس بـأسرارٍ، وتختبـئ خلـف حـدود العقـلِ.

خلف النّسـوةِ جمـوعٌ مُحتَجزة، كأنّهم في جنازةٍ.

الصُّرَاخ، النُّوَاح، الفَزَع.

أطفـالٌ يحاولـون الفـرارَ مـن أيـدي آبائِهـم ليدخلـوا بطـونَ القبـورَ المحفـورة.

يخمِـش الأطفـالُ سـواعدَ آبائِهـم، يخمشـونها بأظافرهـم، يصيحـون، يئنّـون، يـودّون الهَـرب، يطوّقهـم آباؤهـم، تحاصرهـم أمّهاتهـم، اللّـواتي يصرخـن، فيـما يـكاد الأطفـال يمزّقـون شـفاههم مـن العـضّ، كأنّ المـوتَ سـحرٌ لا يقاومـون فتنتـه، بـدتْ كلحظـةِ عجـزٍ أمـام سـطوةِ المـوتِ، لحظـة مصـيرٍ غرائبيّـة.

بـدوا الأطفالُ مكتّفي الإرادةِ.

يبـكي الآبـاءُ، لا يعرفـون وسـيلةً لنجـاةِ أطفالِهـم، ينذبـون، يحـاصرون فـرار الأطفـال، يلعنـون المـوتَ بالدّمـوع، فيـما يبـدو لـنْ ينـصرف عنهـم إلّا بأطفالِهـم.

المـوتُ يهبـط مِـنْ فـوق، أراه جليًّـا، بعـرضِ السّـموات

والأرضِ، وجهُـه مُظلـم، ملامحُـه لا يُمكـن لأحـدٍ أن يسـتوضحها، في يـدِه بلطـةٌ، ورداؤه كوشـائجٍ سـوداء.

صـوتُ المـوتِ منغـومٌ عـلَى مقـاسِ رؤوس الأطفـالِ، يسـمعونه وهـو يـزوم، يُتلِـف اتّزانهـم، يجثـم عـلَى إرادتهـم، يشـدّهم إلى القبـور مِـنْ بـين أيـادي آبائِهـم، و«ماعـت» تكتـب، تـدوّن، ولمّا تنفتـح أفـواه القبـور عطشَى لـدمِ الأطفـالِ، غصبًـا عـن آبائِهـم، يهرولـون إلى المـوتِ، يلتحفهـم في ثوبِـه الـذي يبـدو كسـحابةٍ رماديّـةٍ حطّـت أمـام الأبصـارِ، سـحابة غـادرة، يترحّـم عليهـم آباؤهـم، إنّهـم هالكـون بأمـرِ المـوتِ، ولا جـدوى مـن المنازعـةِ أو محـاولات الإنقـاذ، أو الحيلولـة دون الفنـاء، كلّهـا عبثيّـة، ليـس لهـم غـير الحـزن، الترحّـم، فـلا قـوّة تجابـه المـوت، والأطفـال يتبعونـه صاغريـن، يصفّقـون مـع صوتِـه الهامـس في آذانِهـم، يضمّـون أجسـادِهم صفوفًـا، يشـبّكون أياديهـم، ويسـيرون إلَى لحودِهـم.

تفتـح القبـورُ صدورَهـا للأطفـال، ثـمّ تشـهقهم، تغطّيهـم، يختفـون، إلى حيـث يهبطـون للعـالم التّحتـيّ، وقـد بـات مصيرُهـم مقضيًّـا بالنسـبةِ لأولئـك الذيـن يقيمـون الجنائـز ويترحّمـون حـول كتبـةِ الأعـمال، نعـم ماتـوا، ككلّ جسـدٍ يفنَـى، إنّمـا هنـاك، في العـالمِ التّحتـيّ؛ قـدْ تقـام الشّـعائر كي يكـبر الأطفـال، ولـئن يزدهـرون، عـلى هيئـاتٍ أخـرَى، يصبـح مصـيرٌ مغايـرٌ، ربّمـا.

تستكين القبورُ بساكنيها الجُدد، وفيما أتقدّم في الطّريق، تعلو أصواتُ أجراسٍ، ودقّ طبولٍ، وبدا موكبٌ في نهايةِ الطّريقِ، وزحام، رجالٌ سود، ونساء يقفن على أجنابِ الموكبِ، وعربة يجرّها حصانان، يجلس فوقها رجلٌ بجسدٍ برونزيّ، في يدِه سوطٌ، وعلى رأسِه تاجٌ. عرفتُه على الفورِ، كان العملاق المجنّح الذي دخل معي البوّابة.

يشدّ لجام الحصانين فيتباطئانِ، تتوقّف العربة بعْد خطواتٍ، يستقبله خادم، يضع كفّه تحت قدمِه، يهبِط، يتقدّم إلَى أحدِهم، فيستدير إليه، يتقدّم أكثر، بابتسامةٍ، وهو يصيح:

- أخي.

يحتضنه، وأستطيع، رغم زخمِ المشهدِ، أن أتبيّن ملامحِه، وفيما يهتف الرّجل: أخي. أهتف بداخلي: أبي!

أركض نحوه، لمْ يبدُ أنّه ينتبه لي، أركض، بينما أرَى أمّي أيضًا، وهي تتأبّط ذراع أبي، ويمضيان يصعدان علَى سلالمٍ رخاميّةٍ، ومن ورائِهما ذو التّاجِ، يحوّطهم حرسٌ، وعبيدٌ، وكهنة.

يصدّني حاجزٌ غير مرئي، أقع أرضًا، أحاول العبور دونما جدوَى، أنهض، أراقب المشهد من خلف عازلٍ

هـوائيّ، كأنّـه سـقط كجـدارٍ عـلَى خيـالي، أسـمع جلبـةً في الأعـلَى، أرفـع عينـيّ، «ماعـت» لمْ تـزل جالسـةً عـلى كـرسي فـوق المشـهد كلّـه، في يدِهـا ريشـتُها، ويتحلّقهـا بعـضُ الحيوانـات، تنحنـي لي برأسِـها، تـزمّ شـفتيها، تدعـوني للصّمـت.

كلّ شيءٍ جرَى قديمًا يجـري مـن جديـد، يجـري أمامـي، كي أصبـح شـاهدًا عـلَى الوقائـع التـي فصلّتهـا النّصـوص.

الجمـوع يرتـدون أكاليـل الزّهـور، والتّيجـان الخـضراء، مِـنْ شرفـات المعبـدِ يُنـثر مـاء الـورد، كاهـنٌ جَهـمٌ يتلـو شـعيرةً مـن ورقـةٍ بـردي بصـوتٍ جهـور، يصفّـق الجمـعُ، يتكدّسـون، والاحتفـال يصخـب، و«ماعـت» ترفـرف في الأعـلَى تـدوّن مـا يحـدث، ولا تتدخّـل.

حسيب الجبل

أجل، رقد الجبلُ علَى سرٍّ عظيمٍ، أبقَى عليه في بطنِه، تقلّبتْ عليه الدّهور وما باح، تحيّرتُ لماذا تخيّرني؟! لماذا منحني السّرّ؟! صعدتُ مسلوب الإرادةِ إلَى ندهٍ ربّانيّ، كنتُ صغيرًا لا أعرف معنى الأسرارِ، ثمّ كانَ طريقي حُفظتْ في ذاكرةِ عينيّ، اكتشفتُ مدقًا، طلعته، ظهر لي كائنٌ خرافيّ، رأسُه علَى رأسِ ذئبٍ، وجسمُه علَى جسمِ رجلٍ مقدود العضلات، كأنّ به يستدرجني إلَى السّرّ، يقودني.

لمْ أتخوّفـه، تبعتـه، كانـتْ عينـاه تضيئـان العتمـةَ إلى قمّـة الجبـلِ، مشـيتُ مِـنْ خلفِـه جسـورًا مجازفًـا، صحبتُـه طمأنتنـي، بينـما ظـلّ، كلّـما صعدنـا، يعـوي، يهتـزّ الجبـل، تـردّ عليـه أصـوات مـن ورائِـه، أصـوات شـقّت سـكون الفـراغ، كأنّمـا تنبعـث مـن قـاعِ بـئرٍ سـحيقةٍ، سـلّمني إلى أعـلى الجبـلِ، ثـمّ اختفـى.

درت حـولي بعينـيّ، كانـتْ ريـح، وعتمـة، لكنّـي اسـتبطنتْ موقعـي في هـذا الملكـوت، وأدركـتُ مـا ينبغـي فعلـه.

لملمـت الحَطـبَ والأخشـاب المتفرّقـة في سـفحِ الجبـل وأقمـتُ بيتًـا، أطلقـوا عليـه «المَـسرَى»، وأطلقـتُ عليـه «المُعتَكَـف».

كنـتُ صغـيرًا لكنّـي بحكمـةِ مئـة رجـلٍ، أعـرف مـا لا يعرفـون، جئـتُ إلى الدّنيـا مُبـاركًا بالنّفحـةِ الإلهيّـةِ، كأنّ اللـه اصطفـاني منـذ المَهـدِ؛ هكـذا زعمـوا.

مـرّتْ عـليّ الأعـوام توّاقًـا إلى الـسّرِّ، وعـلى مشـارفِ كلّ حقبـةٍ كان الجبـل يلتحـم بي، يعلّمنـي، يطـوّع لي سـاكنيه، صرتُ، شـيئًا فشـيئًا، أحكـم بـين الكائنـات وأصاحبهـا، وسرَى بيننـا فهـمٌ وتواصـلٌ، أخاطبهـم وأفهمهـم، يحرسـونني، وينامـون في معتَكفـي، نتوسّـد فراشًـا واحـدًا، إنّ أرض اللـه للجميـع، وإذا مـا هجعـوا، تسـاووا.

معتكفي أشبه بصومعةٍ، لمْ يكن ثمّة ترف فيها، فراش صغير من كليمات متهرّئة، وسجّادة للصّلاة، وزير ماء، لكنّها كانتْ مفتوحةً على الأسرار، على الخلاء الشّاسع المستوطن سفح الجبل.

جبلُ المغيبِ، جبلي، هذا لقبُه بين الجبال.

هنا، قديمًا، كانتْ الآلهةُ تهبط، تتناحر، تتصارع للظفر به، إنّه مقرّ الموتَى المبرئين الذين ينعَمون، دون غيرِهم، بأشعةِ «رع» الدّافئة المقدّسةِ، إنّه جبل التحوّلات، جبل المولد والبعث، جبل الأسرار، إنّه المَغيب كما لمْ يكن مغيبٌ يُشبهه.

هنا، علَى جبلي، كانتْ مملكةُ «أوزوريس».

أنتمي إلَى هذا الجبلِ، وعُزلتي فيه لمْ تُشعرني بالوحدةِ، استتبَ لي مقامًا، واستطعتُ، بمرور عمري، أنْ أنشيء فيما بيني وبين أسرارِه أواصرَ متينةً، بلغتْ ألفةً مُذهلةً.

بوّابات المعابد الحجريّة ضئيلة أسفل منّي، سنابلُ القمح تتراقص، تتهامس، الشّمس تتربّص بالصّخرِ، تلمّعه، فيكاد من شدّة اللّمعان يطقّ، كأنّه يُسخّن علَى موقدٍ.

تنازعنـي الأسرارُ في الأيّـام الأخـيرة، أقـضي اللّيـل نصـف يقـظٍ، الرّيـح تسـامر الجبـل، والحيوانـات تجـد لهـا متّسـعًا للفُسـحةِ خـارج المعتكـف، وفي رأسِي يهاتفنـي صـوت، أنْ تهيّـأ، ثمّـة سرٌّ هـا هنـا.

تُـرَى هـل وفّقنـي اللـه لطاعتِـه قـدَر جهـدي؟! هـل علـيّ بـذل المزيـدِ مِـنْ الجَهـد؟!

خلـوت إلَى القِبلـة، دعـوت اللـه أنْ يعلّمنـي الاسـم الأعظـم، اسـمَه المائـة، لعـلّ هـو السّرّ المُبتَغـى غالـب الأمـر.

بـتُّ أُكثِر مـن تضرّعـي وسـؤالي، وبينـما أكـدّ في الابتهـال يومًـا إذا برقاقـةٍ مـن نـور تلـوح أمـام بـصري، كنـتُ مسـتغرقًا في الصّـلاةِ، فأعرضـتُ عـن الرّقاقـةِ لئـلا أنشـغل بالنّظـر إليهـا عـن إقبـالي إلى اللـه، وإن كانْ شـغفي قـدْ راح ينازعنـي أنْ أنهـي صلاتي، ولمّـا سـلّمت عـن يمـينٍ وعـن شـمالٍ، ومـا كـدتُ أمـدّ يـدي قابضًـا علَى الرّقاقـةِ، حتّـى تلاشـتْ.

ثـمّ ذات نهـارٍ، بـدأ السّرُّ ينكشـف، كان الجبـل يحبِـس الشّـمسَ خلـف سـنّه، وقُـدّرَ لي أن أتبّـع هاجسًـا، تـردّد همسُـه بداخـلي، التففـتُ حـول المعتكـف، صعـدتُ عـلى حجـارةٍ ناتئـةٍ، وفي السّـفح هنـاك، كانـتْ البيـوت مطمـورةً تحتـي في ضبـابٍ، وبـدا حصـا يولـد مـن قلـبِ الجبـلِ، بلـونٍ

زاوِ، حصا ضئيل الحجم، أدوس عليه فيتدحرج إلى أسفل، فأنزلق معه، رحتُ أنتزع قدميّ بعسرٍ فيما أصعد.

لمحتُ بطرفِ عينيّ فجوةً في صدرِ الجبل على امتداد النّظرِ، طلعتُ أكثر، كانتْ مسيَّجةً بالصّخرِ، لمْ أستغرق جهدًا في إماطةِ الصّخرِ عَن فم الفجوةِ، لا شيءَ يدفعني للتردّد، لستُ أخاف ممّا قدْ يهبني الجبل.

أزيح الصّخور، غبارٌ متراكم منذ أزمنةٍ يوجّ، وبدتْ الحفرةُ قدْ أخذت تزفر، كأنّ أنفاسَها ظلّتْ مكتومةً طيلة هذا التّاريخ، سمعتُ قرقعةً، لمْ أتهيّب الخطر، دخلتُ برأسِي في قلبِ الفجوةِ، رأيتُ طريقًا ممتدّة إلى أسفل، وسلالم حجريّة تؤدّي لبطنِ الحفرةِ، هبطتُ معها، كانتْ الجدرانُ من حولي قدْ مضتْ تُستنطق، تفرز إشارات مضويّةً، وتنير لي طريقي المُفضية إلى تحت.

النّقوش البّاهتة تتلألأ، الخطوط تتلوّى على الجدران، تتجسّد، تتّابع من حولي وأنا أهبط، ألتقط أنفاسي بصعوبةٍ، يقلّ مستوى الأكسجين، أرى انعكاس حدقتي عينيّ على الجدران كلّما نزلتْ.

تتّسع لي الطّريق، ينفرج قلبُها عن غرفةٍ مربّعةٍ، في منتصِفها يرقد تابوت، مطلٍ بالذّهب، يدفعني الهاجس إلى زحزحةِ حزامه، كان غطاءُ التّابوت ثقيلًا، بعْد دفعةِ

فاخـرَى وورب، أقمــتُ بــصري مستكشــفًا مــا بداخلِــه، كانــتْ موميــاء مســجّاة في بطنِــه، وفوقهــا لفافــةٌ.

دسســتُ ســاعدي تناولــتُ اللّفافــةَ وأنــا أرتجــف، كانــتْ مــن ورق الــبردي، فككتهــا، ثــمّ سرتْ في يــدي شرارات متقطّعــة، تلوّيــتْ ووقعــتُ أرضًــا، كانــتْ الــشّراراتُ تتولّــد مِــنْ البرديّــةِ وتطــق مِــنْ حــولي، ومِــنْ عنــد آخــر جــدارٍ في المقــبرةِ راحــتْ شرارات تنبعــث أيضًــا، كانــتْ تُشــبِه النّــارَ، وبــدتْ اللّوحــةُ الحجريّــة التــي تُطلِــق الــشّرارات تُحيَــى، تتحــرك ألوانُهــا، استشــعرتُ شرًّا، والــشّرارات مــا بــين البرديّــة واللّوحــةِ الحجريّــة كأنّهــا مغناطيســيّة، تتبــارَى، فتنهمــر ألــوان، وأضــواء، وراحــتْ الطّاقــة المتألّقــة تــدور في حلقــاتٍ أســطوانيّة مُفرغــة وتلتحــم في بعضِهــا، ثــمّ طوّقــتْ أطــرافي، انتزعتنــي مِــنْ فــوق الأرض، ودارت بي داخــل فضــاء المقــبرةِ، وامتــدّتْ كخيــوطٍ تدفّقــتْ في عينــيّ، في أنفــي، فمــي، وكلّــما تغــذّى جســدي بالطّاقــةِ انتفــخ، فيــما كانــتْ بطنــي تتشــقّق، كأنّمــا يســتولد الــسرُّ منّــي، وغِبــتُ عَــنْ الوعــي المؤقّــت البــشري، واســتُلهِمتُ وعيًــا عابــرًا للأزمنــةِ، والحــوادثُ كانــتْ تجــري داخــل رأسِي، كلّ الحــوادث القديمــة التــي دوّنــتْ عــلَى الجــدرانِ وفي بطــونِ المقابــر، أوحــيَ إليّ، كأنّي الإجابــةُ.

رحــتُ أدور في الهــواء ملفوفًــا في الشّــحنات المتدفّقــة إلَى جســدي تخترقــه، وأحسســتُ كأنّ الغرفــة تتنهّــد، تتنفّــس طاقــةً، عندئــذٍ دوّى في أذنيّ صــوتٌ كالخبــطِ عــلَى أجــراسٍ،

كأنّه ينبعث مِنْ المدرّجاتِ الصّخريّةِ والتّلال البعيدة متسللًا مِنْ فوّهةِ المقبرة إلَى الدّاخل، يخفق الصّوت دانيًا مرّةً، ومُبتعِدًا مرّةً، كأنّما تتقلّب أذناي فيه.

لمْ أشعر بالألم، بلْ شعرتُ بالتّدرّج الرّوحاني، وجسدي يُضاء كنبراسٍ مقدّسٍ، ودوي الأجراسِ يتحوّل إلَى أصواتٍ واضحةٍ تتدانَى إلَى أذنيّ، تهمس، تمنحني المعرفةَ التي لا معرفة مثلها، تعلّمني أصولَ الأسرارِ، وتفكّ لي طلاسمَ الحروفِ والأشياءِ، وكلّما تهامستْ الأصوات تأجّجتْ المعرفةُ في ذهني، طبقات طبقات، تكشِف عَنْ نفسِها، تتراكم بداخلي.

ثمّ وإنْ بدتْ البرديّةُ مكتوبةً بالطّلاسم، ورغم جهلي بما ورد فيها من كتابةٍ، جهلي القديم أقصد، استطعتْ استيعابها، كأنّ علمًا تخفّى بذاتي البشريّة، ثمّ استطعتُ أن أستبعثه.

تستقرّ الطّاقةُ في أعماقي، يهدأ المكان، يعلو صدري ويهبط، تتقاطر الأسرارُ علَى رأسِي:

«نحن، التّابعون للتّعاليم الإلهيّةِ، قرناء «حورس»؛ رمز الضّياءِ والحَياةِ، أبناءُ الأرملةِ، أقمنا العَدل، تناحرنا لأزمنةٍ مع أتباعِ «سِت»؛ المتجبّر على المادةِ، المستحوذ علَى النّفوذِ، رمز الظّلام، رمز الشّرّ، رمز الدّمارِ، واستطعنا أن نكسب معاركنا مرّةً، وهُزمنا

مـرّةً، لكنّنـا، رغـم كلّ الهزائـم غـير المسـتحقّةِ، مـن بعْـد هزيمـةِ «أوزيريـس»، واغتيالِـه بالخِـداعِ والحيلـةِ، قُـدّر لنـا تكويـن مملكـةِ «مـصر» مـن جديـدٍ، ونصّبنـا «مينـا» فـوق عرشِـها، ووحّدنـا المصرَيْـن العُليـا بالسّـفلَى، فلُقِّنّـا لآلافٍ مـن السّـنواتِ التّعاليـمَ والأسرارَ المُقدّسـة، والممارسـات الطّقسيّة، وألغـازَ التّدرجّـات السّـماويّة، وجميـعَ التّقنيـات الخاصّـة بتشـييدِ المعابـدِ والأهرامـات وبنـاء المقابـرِ.

نحـن، الملـوك، وكبـار الكهنـة، اطّلعنـا عـلَى الأسرارِ الإلهيّـةِ، قُمنـا بحراسـةِ المعرفـةِ، حافظنـا عليهـا، ثـمّ حرصنـا عـلَى نقلِهـا للكهنـةِ مِـنْ بعْـد.

إنّنـا أولئـك، حاشـية «حـورس» المُنـير، الذيـن دامـتْ نصوصُهـم وأسرارُهـم إلَى بعـثٍ.

نحـن، ننقـل إليـك إرثنـا، الـسّرَ العظيـم، فكُـن حافِظًـا، ووقـت يكـون أوار المعركـةِ، تجهّـز، ولتعـدّ عُدّتـكَ عنْـد أنْ تنفتـح البّوابـات الثّـلاث: البوّابـة المائيّـة، والرّمليـة، والجبليّـة.»[٢٣].

لا أعـرف كيـف أمكننـي سـبر أغـوار البرديّـة؟! كيـف اسـتطعت حـلّ رموزهـا؟! لكنّـي أُخـبرت طلاسـمَها، بـلا معرفـةٍ سـابقةٍ، لُقّنـتُ معناهـا، وبينـما أفحصهـا راغبًـا في اسـتكناه فيـما وراء الحـروفِ، بشـكلٍ أعمـق، وأنـا أتنفـس بسرعـةٍ، وجـدتُ دخانًـا ينبعـث مـن زوايـا الغرفـةِ، يقـترب

مــن التّابــوت، ينــصرف إليــه، يتجمّــع بداخلِــه، يتقلقــل غطاء التّابوت، يتزحـزح، كأنّ يـدًا تُبعـده، ثـمّ يخـرج رجلٌ حليـق الـرّأسِ.

يســتقيم ناهضًــا مــن قلــب التّابــوت، يتمطّــى، يفــرد ذراعيــه، كان عاريًــا، وكنــتُ أخــشى شــيئًا مبهــمًا، لكنّــي صممْـت عـلى اسـتكمال المجازفـة، وإن تعـرّق وجهـي، ظللتُ واقفًـا أرمقـه، تصلّـب جسـدُه وهـو يثـب لخـارج التّابـوت، ثـمّ بـدأ ينسـلخ مـن جِلـدِه، كثعبـانٍ، وبينـما ينسـلخ، كان رداؤه الجِلـدي قـدْ تغضّـن جـوارَه متهـدّلًا، بـدا يُحيَـى مـن جديـدٍ، انبطـح، لعـق بلسـانِه حافّـة التّابـوت، راح التّابـوت يتشـظّى أحجـارًا صغـيرة، ثـمّ يتشـكّل مـرّةً ثانيـةً، بهندسـيّةٍ ملغّـزةٍ، يتشـكّل كرسـيًا ذراعـاه عـلى هيئـةِ النّسرِ، وظهـره بـرأسِ أسـد.

جلــس عليــه، اكتــسى جســدُه لونًــا بشريًــا، لــوّح بيــدِه، اســتدعاني لأمتثــل، بقيــت واقفًــا مندهشًــا، لــوّح ثانيــةً، دنــوت منــه، لــفّ البرديّــة ومضغهــا، ثــمّ ابتلعهــا، نفــث بخــارًا، خــرج مــن فمِــه طائــرٌ أحمــر، زقــزق، طــاف عــلى الجــدران لونّهــا.

الطّائــرُ يبــاشر تحليقــه حــول الجــدران، تتلــوّن الغرفــة، يُغرقِهـا بالرّمـوز، وبــدا رمـزٌ يشـعّ كضـوءٍ متسـيّدٍ:

«أبوفيس»..

قـرأتُ الرّمزَ بوضوحٍ ويسرٍ.

يُعيـد الطّائـرُ للجـدرانِ حياتّهـا، تتزيّـن، كأنّمـا انتقلـتْ إلى مـاضٍ سـحيق، لمْ يكـن فيـه معنـى الأفـول، يحلّـق الطّائـر فتتـوه عينـاي مـع الألـوانِ، أجـدني اسـترحتُ، اسـتطابتْ روحـي هـذا الـسّرّ.

قيل: تجهّز.

وها أنا سـأنتظر، بـكلّ هذه المعرفةِ الوليدة.

الطّواف

يتبدّل إحساسِي بهذا المكان ما بين بين.

كالغريبِ يقف علَى حافةِ سفرٍ، لا يدوم له مستقرّ، ولا يكتمل حلم؛ ولجتُ إلَى عالمٍ من التّساؤلات، كأنّها ركامُ الأزمنةِ المنصرفةِ، عالم دُفنتْ فيه الأسرارُ، ولمْ يفضها تاريخٌ، يغيب العالم الآخر المهجور -بلا طواعيةٍ- لتمامِه، لا يظلّ إلّا دهشتي، بينما أشعر بالظّمأ، أشعر بالإرهاق، وعلَى النّاحيةِ الأخرَى من الحاجزِ الحسيّ يبدو المعبد، مهيبًا، يضجّ بالحياةِ، كأنّهم لمْ يفرَغوا مِنْ بنائِه إلّا منذ لحظةٍ عابرةٍ.

الشّـمسُ تغمـر المعبـد، الكهنـةُ وكبـار الموّظفين يتراصّـون حـول المذبَـح المقـدّس الـذي تقـدّم عليـه الأضحيـةُ؛ طيـور وغـزلان وثـيران وماعـزٍ وكِبـاش.

يـضرب قلبــي، محتجــزٌ لا أسـتطيع المـرور، أبي هنــاك يلـوّح بيـدِه للجمـوعِ، وفي ظهـرِه تقـف أمّــي كيمامـةٍ تحتمـي بغصـنٍ، الاحتفاليّـةُ تبـدأ، أمـام بـصري، فيـما أعجـز عـن المشـاركة فيهـا، و«ماعـت» منشـغلةٌ في الأعـلَى مـع حيواناتِهــا.

حشــودٌ واقفـةٌ تنحنـي فـاردةً أياديهـا عنـد مـرور سربٍ محمـولٍ عـلى أكتـافِ بعـض الحـرس، الـسّربُ محفّـة فوقهـا مركــبٌ خشــبيّةٌ مطليّــة بالرّسـومات، عــلى ســطحِ المركــبِ تابـوتٌ ضخـم.

جوقــةٌ موســيقيّة بالطّبــول والقيثــارات والمزامــير والدّفـوف، يغنّـون أنشـودةً احتفائيّـةً، فيـما يجلـس صاحـبُ التّـاج مصفقّـا بيـدِه، يجلـس عـلى كـرسي أعـلى مـن الجميـع، يلتـفّ حولـه الكهنـة، بـدا عملاقًـا، لـه ملامـحٌ صلـدة، يرتدي في أصابعِــه خواتــمَ بأحجــارٍ نفيســةٍ، ومِــنْ أذنيــه يتــدلّى قرطــان مِــنْ الذّهــب، لا تعبــير عــلّى وجهِــه، كان مكحّــل العينـين، وسـيمًا، مليحًــا، بشرتــه مشربــة بالحُمــرةِ، ولــون عينيـه فاتـحٌ، كغيـم.

يـدوّي المعبـد، يهبـط صاحـب التّاج، يتقدّمـه الحـرس، لا يجـرؤ حـارسٌ عـلَى النّظـر إليـه، إنّ جسـدَه مقـدّسٌ، فقد يضعـون عـلى جسـمِه رداءً مطـرّزًا بالفضّـة والذّهـب، يدخ بسـاعدِيه إليـه ثـمّ يشـدّ حزامًـا فيلتـفّ بالـرّداء تمامًـا، يع بعضُهـم وجوهَهـم بالـتّراب وهـم يركعـون تحـت قدميه يناولـه أحدُهـم لفافـة بـردي، يلـوّح بهـا، ثـمّ يعـدو من يسـارِ المعبـد إلى يمينـه، يعـدو وينعطِـف مـع الجـدار الخارجـيّ، كأنّـه المسـار السّـماوي للنّجـوم والشّـمس، لا يسـتغرق إلّا أنْ يعـود مِـنْ دورتِـه حامـلًا البرديـة فيلقيه إلَى أحـد الحـرسِ، بـدا جسـدُه فتيًّـا، لمْ يُرهقـه الرّكـض. يتقـدّم نحـو أبي، يرفـع يـدَه يحطّهـا عـلى كتفِـه، يقـول:

- هل أنت سعيدٌ بالاحتفال يا أخي؟!

- احتفـال بالطّبـع، لمْ يكـن ثمّـة داعٍ إذن مـن ممارسة شـعائر التّعاليـم بالبرديّـة، لسـنا في مراسـمٍ دينيّـةٍ!

- كي نحصّـن الاحتفال مِنْ الشّرور.

- إنّما تُحارب الشّرور بالخيرِ يا «سِـت».

ضحك «ست»:

- أجـل أجـل يـا ربّ الخـير، وبالهدايـا تُحـارب أيضًـا، لقد جلبـتُ هديّـةً لعلّهـا تروقـك.

واستدار وهو يضيف:

- عمومًا لقد تخلّصنا من جميع أعدائِنا الذين أمطرونا بوابلِ الشرور يا أخي، بل وارتوينا بدمائِهم، ليس عليّ إلّا التصدّي لشرٍّ واحد، خطير، ولا يُمكن محاربته.

كان صوتُه عاليًا مسموعًا، التصقتْ أمّي بأبي أكثر، طوّف أبي بعينيه، بدا عليه التوجّس، تلاحمتْ أهدابُه من أشعة الشمس المُسلّطة، صاح «ست»:

- تعالوا.

لبّى بعضُ الرّجال طلبَه، تقدّم آخرون وأراحوا التّابوت علَى البلاط أمامه.

- افتحوا التّابوت.

فُتح التّابوت، مضَى الرّجال يتناوبون الرّقود فيه، لمْ يكن ملائمًا لأحدِهم، استدار «سِت» نحو أبي:

- كي تعرف أنّ الهديّة لا تناسِب إلّا صاحبها، تعال جرّب.

هزّ أبي كتفيه مبتسمًا، كان حرّاسٌ ينفخون أبواقًا نحاسيّةً، بدا القلق على ملامحِ أمّي، شدّته إليها،

لكنّـه طبطـب عـلَى مرفقِهـا وصعـد حيـث التّابـوت، قبـل أن يدخـل إليـه ضمّـه «سِـت»، ضمّـه طويـلًا، اندهـش أبي مِـنْ مثـل هـذا الشّـعور المفاجـئ، لكنّـه رفـع سـاقيه سـاقًا بعْـد سـاق، ودلـف إلَى التّابـوت، كان التّابـوت عـلَى مقـاس جسـدِه لحـدّ التّطابـق، صفّـق «سِـت»:

- ألمْ أخبرك!

في سرعـةٍ هـرع بعـض الحـرس وأغلقـوا عـلَى أبي التّابـوت، ضربـتُ الحاجـز بيـديّ، دون جـدوى، رفعـتُ عينـيّ إلى «ماعـت»، صرخـتُ:

- أهي عدالتكِ؟!

لمْ تسـتجب، منهمكـة عنّـي، عُـدت ببـصري إلَى حيـث أُغلِـق التّابـوت تمامًـا عـلَى جسـدِ أبي، رغـم ذلـك، اسـتطعتُ أنْ أسـمع دقّـات قلبـه المتسـارعة، تضرّعَـه، كان مِـنْ داخـل نعشِـه يخاطـب الآلهـة بصـوتٍ متقطّـع:

- يجتاحنـي الخـوف، أخـشَى مِـنْ السّـير في الظّـلام، هـل قُـدّر لي الغلبـةُ عـلَى يـدِ مَـنْ هزمتهـم مِـنْ قبْـل؟

يسـتوثقون من إحكام غلق التّابوت.

- أبنـاء الظّـلام يريـدون الخـلاص منّـي، لا تتخـلّ عنّـي يـا

«آتوم- رع»، وإلّا فأنا هالك يا محالة!

لَمْ يزل أبي يتضرّع.

تصرخ أمّي، يحاوطها الحرّاس، استقامتْ الرّماح، تراصّ جنودٌ بدروعٍ حديديةٌ، وأقنعةٍ جلديّةٍ حمراء، استلّ «سِت» سيفًا لامعًا، تضرّعتْ أمّي بدورِها:

- أهذه هديتُكَ لأخيك يا جاحِدٍ؟ ألهذا الحدّ تُضمِر الحقد؟

- إنّه جزاؤه.

- ربّ الحياةِ لَمْ يرتكب إثمًا، لا تجعل بغضك يعميَك، أتوسّل إليك ألّا تنتزع قلبي مِنْ ضلوعِه..

- لن أنتزع قلبك، بلْ قلبَه.

وراح يدور حولها ساخرًا:

- دعيني أقرّر.. قلبك أم قلبه؟! أم تقرّرين أنتِ؟!

ارتعشتْ شفتاها، ظنّها قدْ يتراجع عَنْ عزمِه إزهاق روح أبي.

صعَد «سِت» إلَى حيث التّابوت، نقرَه نقرتين، قهقه،

رمق أمّي، استدار إلَى جنودِه، أمرهم أنْ يُفرِجوا عَنْ أبي، فكّوا التّابوت، أخرجوا أبي خائرَ القوَى، وقبْل أنْ يغلِقوا التّابوت ثانيةً زعق فيهم:

- اتركوه مفتوحًا، لمْ ينتهِ الأمر، سنودعه فيه مرّةً أخرَى.

تكالبوا علَى أمّي قيّدوها، كانتْ الجماهيرُ تتفرّج وعلَى وجوهِها الفزع والسّخط، والعجز، بعضُهم يبكي، بعضُهم وضع كفّيه علَى رأسِه، بعضُهم تقرفص أرضًا.

الجنودُ أتباع «سِت» أوسعوا أبي ضربًا، تهالك بينهم، صراخُ أمّي بلغَ حدّ النّباح، اقتادوا أبي إلَى شجرةِ جمّيز.

يعلّقون علَى الشّجرةِ مشنقةً، يربطون رأسَ أبي فيها، أصرخُ بدوري، مقهورًا، تحجزني العوالم فيما بينها ولا أستطيع التدخّل، تصيح أمّي والدموعُ تقفز مِنْ عينيها كالشّلال:

- كفاك يا «سِت»، خُذ المُلك والقصر والتّاج واتركه لي، كفاك.

لا يُنصِت، في عينيه شررٌ، يتدلّى جسدُ أبي مِنْ المشنقةِ، ينازع سكرات الموت، يستلّ «سِت» خِنجرًا مِنْ حجر «الظّران» الأسود، يحوّط بيديه جسدَ أبي، ولمّا يطمئنّ

لتمامِ موتِه يغرس الخنجر في قلبِه، يجتثّه، تتقاطر دماؤه علَى ثوبِه، على الأرض، تسخ أمّي، أضرب جدارَ الهواءِ بيديّ، قلبُ أبي لا زال ينبض، ولو علَى وهنٍ، «سِت» يتّجه إلَى التّابوت الذي ينتظر وقودَه، يُلقي في حشاشِه القلبَ، يحملون ما تبقّى من جسم أبي، يمزّقه بالخنجر، وكلّما انتزع قطعةً رماها في التّابوت، ومِنْ بين شفتيه سال اللّعاب، كأنّه سعران.

أفلتتْ أمّي مِنْ قبضةِ الحَرسِ، اندفعتْ نحو «سِتْ»، تركله، اعتلته، حاولت تقضم أذنه، لكنّه دفعها فوقعتْ علَى الأرض، راحتْ تنازع بيديها والحرّاس يحملونها، راحتْ تصرخ، أغرقتْ دموعُها حشية المعبدِ، وقف «سِت» هناك مزهوًّا بفعلتِه، أمام كلّ ناس المدينةِ، الذين تلجّموا، تهامسوا، لكنّهم أُقسروا علَى التّصفيق في نهايةِ الأمر، و «سِت» يمضي بين قرنائِه، الذين تعلو هتافاتهم تطالب به ملكًا متوّجًا علَى عرش «مصر»، وارتقّى محفّةً، ستطوّف به المدينةَ، سيُعلِن عَن انتصارِه الخادِع.

تهاويتُ أرضًا، يغيبون بالتّابوت، سيرمونه في النّهر، ستنكتم أنفاسُ أبي، سيختنق في قاعِ المياه، ستصبح كلّ الاحتفالات دمويّةً، سيصبح شرٌّ في هذا العالم.

«سِت» يُحاصَر بالمباركات والورود.

«سِـت»؛ فائق القوّة، مدمّر النّور، قاتل أبي.

«سِـت»؛ ربّ الصّحراءِ والجدب.

«سِت»؛ الثّأر المُستحقّ.

ها هو سـوف يُنَصّب إلهًا أبديًّا للظّلامِ.

أرَى الجنـودَ يضعـون تابـوت أبي المـلِيء بأعضائِـه الممزّقـة في طـوفٍ خشـبيٍّ، سـيقطَع متـونَ النّيـلِ سـابحًا إلَى الشّـمال، يغطّـون التّابـوتَ بأحزمـةٍ ذهبيّـةٍ، يجرّونـه إلَى عمِـق المـاءِ ويدفعـون الطّـوف، يتحـرّك الطّـوفُ، يتراقـص كلّـما تقلّـب المـوج.

الطّـوف سـوف يرسـو عـلَى كلّ ضفّـةٍ، سـوف يلفـظ التّابـوتُ جسـمَ أبي قطعًـا، وعـلَى كلّ شـاطئٍ سيسـتقرّ جـزءٌ مِـنْ أبي.

سـتورِق الضّفـاف، تخـضَر، سـتنمو الأشـجار في انتظـار أنْ تسـافر الثّـكلَى كي تلملـم الأجـزاءَ ثانيـةً، لتصنـع زوجَهـا مِـنْ جديـدٍ.

المسحور

لا نموت، نُؤجّل فحسب.

أطوي تحت جناحيّ المطيريْن تجاعيدَ العالم، أتحرك في ثنياتِ الطّبيعةِ وأسكن ذُرَى السّماءِ، تصبح مركب «رع» كالحليةِ في قبضةِ يدي، أستحوذ علَى «سا»[٢٤] و«حو»[٢٥]، لمْ يكن لديّ نيّةٌ أنْ أفرِج عنهما، كانا ضئيليْن وأحدهما يقف علَى مقدّمة المركب والآخر علَى مؤخّرتها، تضرّعا لي، تناثر الرّذاذ من فمي وأنا أقهقه:

- أنتما حصيلة إخصاءٍ في نهايةِ الأمر.

لمْ أشـهد إخصـاء «رع»، لكنّـي اسـتحضرتُه، عُـدت بالـسّرّ إلى بدايـةٍ أزليّـةٍ، عندمـا قلّمـوا سُـلطته، وأرغمـوه عـلى الإخصـاء، رأيتُـه يـئن، ضعيفًـا هزيـلًا، ومـن دم إخصائِـه يُولـد «سـا» و«حـو»، يلازمانـه، يتمّـمان تحوّلاتـه وهـو يُبحِـر في الفضـاءِ كلّ ليلـةٍ، كأنّهـما يحرسـانه مِـنْ شرّي، لكـنّ الـدّم الـذي أريـق كان دمًـا بدائيًـا جـدًّا، لا يكفـي شـبعَة لحظـة، بـلْ سـيُراق دمٌ، سـتتخضّب الأرض والسّـماء بالـدّم، لسـوف يصبـح تاسـوعهم المقـدّس[٣٦] غيمـةً أقطّرهـا وقـت أشـاء.

تتوسّـط لهـما لـديّ «سـاتِت»[٣٧]، عمومًـا، وفي نهايـةِ كلّ إشراقٍ، كانـتْ تتوسّـل لي أنْ أمنحهـا مـاءً تقدّمـه للمـوتَى كي يتطهّـروا، أمسـكْها مـن قرنيهـا وأحدفهـا إلى أسـفل، أرعـد:

- تطهّـري من دنس «خنوم»[٣٨] أولًا.

أسـبح فـوق الشّـوارعِ والبيـوت، لا ذكـر للبـشر، لا يُمكـن أن أراهـم، كلّـما عصفـتُ ارتعبـوا، كلّـما هطلـتُ اختبئـوا في خنادِقهـم.

أسـبح، أتقطّـر فـوق بهـو أعمـدةِ «الكرنـك»، ينفـرج سـاقا الأرضِ، تصبـح الأعمـدةُ طريّـةً، أنبسـط، أفـترش، أراود فـرجَ الأرضِ، أمـلأه، تحبـل الأرضُ بي، أسرِي في أحشـائِها، أروي حرمانَهـا المقـدّس، أتفـرّع في مجـارٍ وأقنيـةٍ، أمنـح البـذورَ حيـاةً كي يُطعَـم البؤسـاء مـن الإنـسِ، أرمّـم الشّروخ بالطّـينِ، يصنعـون منّـي بيوتًـا وملاجـئ، لا أعـرف الزّمـن،

أيُّ زمنٍ! أنا الزّمن وأنا حلوله، أنا أدوّر الأحداث وفق مشيئتي، إذا رضيتُ طابتْ حياتُهم، إذا سخطتُ تقلّبتْ، إذا أردتُ الجفافَ كان، سيقدّمون لي الفدوَى والرّجاء، سيقِّفون علَى الضّفاف، سيجلبون غرقاهم بالتقرّبِ لي.

أنصرف علَى جريانٍ إلَى البحيرةِ، بحيرة المعبد، أغفو في مائِها، أستكينُ، أستريح، وكلّ تساؤلهم بعْد ذلك سيصبح: لماذا فارتْ البحيرة، بعْد أنْ ثبت منسوبُها، وكان لا يتحرّك، لا زيادةً ولا نقصانًا؟!

حسيب الجبل

سريعًا يهبط اللّيل، ينصرف وقتي ولا أحسّ بانصرافِه، كأنّ الشّمسَ مشعلًا إذا نفختُه سرعان ما ينطفئ.

لا أكاد أدلف إلَى معتكفي حتّى يتناهى إلى سمعي صوتُ خريرٍ، أتقصّى، لا أتحرّك، أستتبع الصّوتَ، أقف قليلًا أحاول استكشاف موضعه، أهزّ رأسِي لمّا ينقطع، ثمّ بغتةً أجدني متدحرجًا إلى مسافةِ أمتارٍ لأسفل.

الجبلُ يهتزّ، وحجارةٌ تتهاوَى من أعلَى.

كان ظلٌّ شاسِع يسقط مِنْ بعيد علَى الجبلِ، يسقط زاحفًا، ارتفاعه إلَى الأفقِ، وامتداده إلَى الجوانبِ حيث لا ينتهي البصر، بدا مخلوقًا مِنْ بقايا شرٍّ قديمٍ، بُعث ليدمّر العالَمَ الذي نعرفه.

الظّلُ يتّضح، يدنو سريعًا فأستطيع أنْ أحدّد ملامحَه.

مِنْ جِهة الوادي تتقدّم أفعَى ضخمة، أتسمّر مكاني، كانت الأفعَى تتقدّم وهي تبخّ من فمِها الحممَ، تتقدّم بسرعةٍ غريبةٍ، عنقُها ممطوط ورأسُها مقوّسة، تضرب بذيلها، كلّما تقدّمتْ قدَّ من جسمِها أجنحةٌ، كمجاديفٍ على جانبيها، أجنحتها تهدّم البيوتَ فيما حولها، وهي تدبّ بقدمِها مهرولةً نحو الجبلِ.

بدتْ الأفعَى تفحّ داخل رأسِي كأنّها تُخاطبني.

لَمْ أفسّر فحيحَها، حاولت الاحتماءَ، أغلقت باب المعتكف، كان الأمرُ عبثيًّا، ممَ أحتمي! وهل يُجدي الاحتماء من هذا الشّرّ المُقبِل يقصِدني بالتّحديد؟!

فتحتْ الأفعَى فكّيها، قطّر ناباها الدّمَ علَى الأمكنةِ، ثمّ تحوّلتْ خطواتُها الرّاكضة إلَى طيرانٍ، ارتفعتْ عن الأرض وحلّقتْ، ذيلُها فِي جهةٍ ورأسُها فِي أخرَى، وبدتْ حراشيفُها صخريّةً، وأنيابُها كخطاطيفٍ مسنونةٍ، يدور الهواءُ معها فِي دوّاماتٍ، وكلّما اقتربتْ استحضرتُ

طلاسـمي، لا يقـاوم الـشرُّ بغـيرِ السّـحرِ، وأيُّ شرٍّ هـذا! إنّـه شرٌّ مهيـبٌ، ظـلَّ متخفيًّـا، نضـج عـلَى حقـدٍ، أكسـبته السّـنوات قـوّةً وغـلًا.

تشـتعل الأراضي، وبطنُهـا تتألّـق بالنّـارِ، تـرشّ غضبَهـا علَى الحقـول، علَى المعابـدِ، والسّـهول، ترتكـز علَى قدميها عنـد حافـة الجبـلِ، رغـم ذلـك، تـكاد رأسُـها تصـل إليّ، تفـرد أجنحتهـا، تفـحّ، يتحـوّل فحيحُهـا إلَى قرقعـةٍ، تـضرب بفكّيهـا الصّخـرَ، فيتناثـر، أصيـح:

- «أبوفيس»، عُودي إلَى موطنِك في الأرضِ السّـفلَى.

تضـمّ جوانـب الجبـل بأجنحتهـا، تلفـح وجهـي أبخـرةُ لسـانِها النّـاريّ، بينـما تُسـتخرَج مِـنْ أحشـاءِ الجبـلِ كائنـاتٌ، حيّـات، ذئـاب، بنـات آوَى، وأرانـب بريّـة، هـؤلاء جنـودي اليـوم، سـوف يسـتلّون أسـلحتهم، ويبـارزون الـشرّ معـي، جنبًـا إلَى جنـبٍ.

تمـدّ لسـانَها، تحـزّم بـه خـصر الجبـل، فيتقلقـل، تشـدّه إليهـا، تقلعـه، يتخلخـل عـن قواعـدِه ويرتفـع معهـا، يميـل بسـنّه للأمـامِ فتتدفّـق إلَى أسـفلٍ صخـورُه متهاويـةً، كأنّمـا يُفرغهـا مِـنْ أحشـائِه، يفـترش ظلُّـه المسـاحات كلّهـا، لا أسـتطيع السّـيطرةَ عـلَى جسـدي، أتقلّـب بينـما الجبـلُ يطـير مـع «أبوفيـس»، كانـتْ تخفـق بأجنحتهـا فتحلّـق للـوراء، لهـا ألـفُ قـدمٍ وألـفُ جنـاحٍ، يطـلّ الـشرُّ مِـن

عينيهـا المشـقوقتين طوليًـا، المتّقدتـين، يجـرف الجبـل في جريانِـه الجـبري كلّ مـا ارتفـع عَـنْ الأرضِ، يجـرف البيـوتَ، الأشـجارَ، النّخيـلَ، و«أبوفيـس» تمـطّ ذيلهـا فيجـاوز النّيـلَ ويسـتقرّ عـلَى الضفّـة الأخـرَى، فيـما تـزرع الجبـلَ في قلـبِ المِيـاهِ، يبـدو كجزيـرةٍ متكـسّرةٍ، والأمـواجُ ترتفـع لتصـبّ في فـؤادِه هـادرةً.

مِـن السّـماءِ تتـدلّى خيـوطُ دمٍ كحصـيرةٍ مـن شـوكٍ، لا يبلـغ البـصرُ منشـأها، تـدبّ الحيـاةُ في الخيـوط المعلّقـةِ، تتحـرّك كألسـنةٍ، تشـتبك حـول الجبـل.

بالـسّرِّ سـوف أحـارب، لمْ أخلَـق إلّا لمثْـل هـذا اليـوم، أتمكّـن مِـنْ شـحذ جسـدي بالهمّـةِ، أقـف في منتصـفِ فُتـات الحجـارةِ، ترتكــز قدمــاي عــلَى إرادتي، أفـرط مسـبّحتي، تُمتَشـق كسـيفٍ لـه نصـلٌ لامـع، تتحـوّل حبّاتُهـا الزّجاجيّـة إلَى معــدنٍ، تسـيح الحبّــاتُ في بعضِهــا بعضًــا، يتطــاول السّـيف، يشـجّ بطـنَ «أبوفيـس»، في غضـبٍ تفـحّ فحيحًـا كاسـحًا، وتنتـزع نفسَـها وتطـير إلَى أعـلَى، ثـمّ سرعـان مـا تلملـم أجنحتهـا وتعـاود الانقضـاض عـلَى الجبـلِ.

الأمـواجُ تمـلأ فراغـات الحِجـارةِ، تُـزلّ قدماي، أكاد أسـقط لـولا أنْ أرفـع نفسِـي مـرّةً أخـرَى، تـبرق السّـماءُ ويــكاد برقُهـا يصعقنـي، يُحـاط الجبـلُ بغابـةٍ مـن ضبـابٍ، الـبرق يـضرب جوانبَـه، و«أبوفيـس» تسـدّد بأجنحتِهـا عـلى سـطحِ

المـاءِ، فتهتـاج الأمـواجُ عـلَى هياجِهـا، تلطمنـي عـلَى رأسِي. تنتشـلني مـن مـكاني فـأدور فِي الهـواء مَـع دوّامتِهـا، ألكـم الموجَ بسـاعديّ، أنفـخ، يـكاد صـدري يخلـو مـن الأنفـاسِ. أنفخ وأنـا أسـتذكر فِي رأسِي كلَّ الأسرارِ، ثـمّ تتشـكّل فِي قلـبِ الدّوامـةِ فقاعـات هوائيّـة، تسـبح وتمـزِج نفسَـها إلَى بعضِهـا البعـض، أسـتعيد أنفـاسِي، يصـير قلـبُ الدّوامـةِ مُفرغًـا مـن المـاءِ، حتّـى تلفظنـي، أسـقط عـلَى وجهـي.

«أبوفيـس» تنتـشر متضخّمـةً، ينسـلخ ظهرُهـا عَـنْ أجنحةٍ أخـرَى، منصوبـةً نحـو السّـماءِ، تخـرج مِـنْ مفاصـلٍ فُقاريّـة، تتشـكّل الأجنحـة المرفوعـة بريشِـها إلَى أعـلى مـع البـارزة مـن أجنابِهـا كزوايـا قائمـةٍ، تفـحّ فِي ثـورةٍ، تحلّـق بثقـلٍ وعصبيّـةٍ حـول الجبـل، يسـود الظّـلامُ أكـثر مـع التفافِهـا، تبـثّ فِي الظّـلامِ ريحًـا، بـدتْ تدبّـر أمـرًا بطيرانهـا اللّولبـيّ المُنفَعِـل.

مِـنْ قلـب الظّـلام الـذي يسترسـل حـول الجبـل يتحـوّل السّـحابُ إلَى موميـاوات دخانيّـة، كلّـما نفثـتْ «أبوفيـس» ريحًـا مِـن فمِهـا هبطـتْ موميـاء إلَى سـاحتي وتجسّـدتْ، حاصرتنـي الموميـاوات، احتشـدتْ مِـن حـولي، كانـتْ فِي أياديهـا عُـصيّ مِـنْ نـارٍ، بينـما تـتردّد ضحـكاتُ «أبوفيـس» مثْـل الصّـدَى.

أكاد أسـمع صوتَها جليًّا:

- ما أسـهل العثـور عليك أيّها الكّهل!

- وما أسـهل الفوز عليك في كلّ مرّةٍ!

- ظنّك سـتنجو اليوم؟!

- كنجـاةِ العـالم مِـنْ شرّك وشرّ متبوعـكِ قديمّـا، كلُّـه بعـونِ اللـه.

- ابتَعـد عَـن طريقـي وإلّا هُلِكـتَ، مـا الـذي تحـاول فعلَـه عـلَى أيّـةِ حـال؟!

- اتركي الجبلَ وعودي إلَى شـكلك القديم.

قعقعتْ ضاحكةً:

- لا يوجـد بـشر حيّ يُمكنه أن يحـول بيني وبين الجبل.

وبخَـت عـليّ نـارًا سـاخطةً، فجـأةً ارتفـع جنـاحٌ مِـنْ صخـرٍ، تلقّـى النّـار عنّـي، وطوّحهـا لتنتـثر حـول الجبـل.

المسحور

مثلـما سـأمتدّ إلَى أعـلى، سـأمتدّ إلَى أسـفل، إلَى الأجنـابِ، شرقًـا وغربًـا، شـمالًا وجنوبًـا، سـأغمر كلّ الفراغـات إلَى مـا لا نهايـةٍ، سـأصبح نشـوءًا جديـدًا، سـأعمر أطـرافَ المعلـومِ وأطـرافَ المجهـول، سأسـتقرّ في تخـومِ الفضـاءِ، سـيُقيمون شـعائرَهم، سيسـترضونني ألَا أسـخط عليهـم، نعـم، سـوف أعـدو المُحيـط الأزليّ السّرمـديّ، منشـأ كلّ ظـلامٍ وكلّ شرٍّ، وسـوف ينتسـب العـالمُ لي مِـنْ بعْـد.

أتمطّـى في قلـب البحـيرةِ المقدّسـةِ، يتقـشّر الجعـرانُ

الحجريُّ الـذي يحرسـها، يطوّفـون حولَـه إذا كانـتْ لديهـم أمنيّـةٌ، اليـوم سـيطوّف حـولي، يتقـشّر الجعـران مِـن لونِـه الصّخـريّ ويسـتعيد ثوبَـه الأسـود اللّامـع، يقفـز عَـن قاعدتِـه، يقلّـب أطـراف المعبـدِ بعينيـه المشّـعتين، ينحـدر إلَى حافّـة البحـيرةِ، أخـضّ المـاءَ فيفـور، يزبـد مرتفعًـا، يدنـو الجعـران، أسـكب نفـسي عليـه، يـشرب، يرتـوي، وبينـما يمتلـئ بي يكـبر، يتمـدّد، تتطـاول سـيقانه إلَى حـدّ الأعمـدةِ الشّـاهقةِ، تبـدأ الحجـارةُ في الانفصـال عـن بعضِهـا البعـض، كلّ حجـارةِ المعبـد، تُعيـد تكويـن هيئاتهـا، تترامَـى وتتداخـل مـن كلّ الأطـراف محلّقـةً، البّوابـات تنغلـق حـولي، حجـرة قُـدس الأقـداسِ تضـوّي، الرّمـل يسـبح ويرتفـع، يصبـح كثبانًـا متفرّقـةً ضاربـةً كسـورٍ حـول المعبـدِ.

أنعزل في ملكوتي.

الحجـارةُ تـتراص مـن جديـدٍ، تتّخـذ أشـكالًا خدميّـةً، يقتربـون مـن حـوافّ البحـيرةِ، جنـودًا جنـودًا، في أياديهـم جريـدُ نخـلٍ مشـتعلٌ، يطوّقـون مربّـع البحـيرةِ، أصعـدُ لأعـلَى كعمـودٍ متدفّـقٍ، يصعـدون بأبصارِهـم معـي.

يرنّمون، يُنشدِون غنوةَ البعث.

الطَّوّاف

بقايا أبي راقدةٌ في ناووسٍ يحمله زورقٌ بمجاديف، تنتحب أمّي وهي راكعة جوار رأسِه المبتورة، الزّورق مجرورٌ بأربعةِ ثيران يقودها أربعة رجالٍ، الموكب الجنائزيّ في طريقِه إلَى المقبرةِ، كاهنٌ عيناه دامعتان يحرق البخور في مبخرةٍ وينثر الماء علَى الموكبِ من قارورةٍ، وفيما وراء الزّورق ينوح رجالٌ، وتعدّد نساءٌ، في مؤخّرةِ الموكبِ تابوتٌ، سيعبر به أبي إلَى العالم الآخر.

يقول الكاهنُ:

- تبقّـتْ قطعـةٌ كي يكتمل التّابوتُ ويُدفَن.

تردّ أمّي:

- إنّهـم يتلـون عليهـا في المعبـدِ، قبْـل أنْ نصـل إلَى الجبّانـةِ تنتهـي الشّـعائرُ.

تُـرَى: هـل اسـتطاعتْ أمّـي، بالفعـل، أن تلملـم أشـلاء أبي كلّهـا؟

«سِـت» فـرّق أجـزاءَ أبي علَـى أقطـار «مـصر»، كان ظنّـه لـن يعـود، لـن يصبـح لـه إرثٌ، طافـتْ أمّـي البلـدان، ومِـنْ كلّ بلـدٍ كانـتْ تلملـم قطعـةً مِـنْ جسـدي أبي المُهـدَر، إلّا جـزءٌ تبقّـى، هـذا الـذي ستسـتبعثني بـه، قضـتْ أعوامًـا في البحـثِ عنـه، ثـمّ بصقتْـه سـمكةٌ مِـنْ فمهـا ذات صيـدٍ، واسـتطاعتْ أمّـي أنْ تبـاشرَ جميـع المراسـمِ والطّقـوسِ التـي تؤهّلها لإنجـابِ إلـهٍ، عـدا طقـسٌ ينبغـي أنْ تمارسـه في الجبّانـةِ.

تشـتدُّ وتـيرةُ عمـلِ النّسـوةِ اللّـواتي يكتـبن علَى الألـواحِ، تتقلّـب القبـورُ التـي يسـكنها المـوتَى تحـت أقدامهـنّ، يُـسرَى بجسـدي، أتفـرّق نُطفًـا مِـنْ أثـيرٍ، ثـمّ أُسـتَدعَى متجمّعًـا حيـث رنـينٌ في الأجـواءِ وإنشـادٌ وروائـحُ بخـورٍ.

أدخـلُ في سـحابةٍ مـن الدّخـانِ، أراني ملتحفًـا بـأبي وراء

عمودِ المعبدِ، وهناك، مِنْ عند بابِ المعبد، فتاةٌ تتلوّى، تنازع شرًّا استولَى عليها، ومجذوبٌ جوارنا يُبعِدها بإشارات مِنْ يديه، ويتعوّذ، ويتلو، يأتي أحدُهم، يحملها، ويركض بها مبتعدًا.

أسيرُ وأبي عند انحسارِ الرّيحِ مَعْ مَنْ يسيرون.

- وما حاجتُنا إلى زيارة هذا الشّيخ يا أبي؟!

- المعرفة.

- لكنّك قلت إنّهم جميعًا دجّالون من بعْد جدّي!

يلثّمني علَى جبهتي:

- يُجزَى كلُّ صاحب سعيٍ بالمعرفةِ.

طابورٌ مِنْ النّاسِ يقف انتظارًا للدّخول علَى مشارف خلوةِ الشّيخ، لكنّ نفرًا أبلغه بهويّتنا، فخرج يستقبلنا بنفسِه، فوق وجهِه أمارات الغِبطةِ، رافقنا إلَى الدّاخل وأفسح لنا مكانًا بجوارِه، جلسنا، وضع راحتَه علَى منكبِ أبي بتوقيرٍ:

- سيرةُ «الطّواف» الكبير المُبارك بلغت أقصَى الأراضي وأدناها.

هـزّ أبي رأسَـه بامتنـانٍ، صرَف الشّـيخ الفـارسِي أتباعَـه بنظـرةٍ مِـنْ عينـه، خـلا إلينـا، كنّـا جالسـين بـين جـدرانِ غرفـةٍ ملكيّـةٍ قديمـةٍ، كنـتُ مشرفًـا مِـنْ فـوق أراني في سـنّي الصّغـيرةِ وأبي يحاوطنـي بذراعيـه، شـدّني الشّـيخ مِنْـه وهـو يقـول:

- اتركه لي.

بـدا عـدمُ الفهـمِ عـلَى ملامـحِ أبي، لكنّـه اسـتجاب عـلَى فضـولٍ، وسَّـدَ الشّـيخ رأسِي عـلَى حشـيةٍ جِلديّـة، وجدتنـي أسـتريح لأوامـر يديـه، ضـمّ أصابعَـه وفردهـا، انتـشر بخـورٌ، حـرّك أناملـه عـلَى نقـوش الجـدران، راحـت النّقـوشُ تنزلـق مـن فـوق جدرانِهـا عـلى أصابعِـه كأنّهـا مسـتدعاة بإرادتِـه للمثـول، تراكمـت الحـروف والرّمـوز بـين يديِـه، خلطهـا، كانـتْ تشـعّ لونًـا أرجوانيّـا، بيـدِه الأخـرَى سـحب رتقًـا وفرشـه عـلَى جبهتـي، نـثر الحـروفَ عـلَى الرّتـق، انفرطـتْ سـابحةً ثـمّ راحـتْ تُعيـد اكتتـاب نفسِـها، تحوّلـتْ الرّمـوز القديمـةِ إلَى آيـاتِ قـرآن، كنـتُ تحـت يـدِه مغمَـىً، أذكـر أنّي حينـذاك لمْ أنتبـه إلَى مـا أتـتْ يـداه، اليـوم، في هـذه اللّحظـة، أشـهَد مـا لمْ يـروِه لي أبي قَـط، كلّ مـا قالـه إنّ الشّـيخَ حصّننـي بقماشـةٍ عليهـا آيـات القـرآن، لمْ أعـرف كيـف كُتبتْ الآيات ولا كيـف كان يُمكـن أنْ تحصّننـي بعْـد حصانـةِ جـدّي لي!

لضـم الشّـيخ الرّتـق في بعـض الخيـوط ولفّـه جيّـدًا ثـمّ علقـه في رقبتـي، وقـال:

- محفـوظٌ بأمرِ الله.

همهم أبي:

- لمْ تكـن هـذه نيّـة زيـارتي، أنـا قـادر عـلى تحصـين ابنـي يـا شـيخ!

- لا بـأس، تتبـدّل النّوايـا يـا ابـن شـيخنا كلّـما أدركتنـا المعرفـة.

- أجـل، جئتُك للمعرفة.

- وهـا قدْ عرفت.. أليس كذلك؟!

- وفقًـا لمـا رأيـتُ، ليسـت معرفـةً، إنّ مثْـل الأمـور مشـهودة في نواحينـا يـا شـيخ، يمارسـها صغـار الدجّالـين، لا جديـد فيـما صنعـت.

- ولا جديـد فيـما قـدْ تصنعـه البشريـة جمعـاء، الجديـد في يقينـك بالأفعـال ووعيـك بأثرهـا، دون أن تسـتهين بهـا أو تحـطّ مـن قدرِهـا.

- لا نريـد أنْ نعطّلـك، لنا لقاء آخر.

بـدا قـدْ فطِـن أبي لإشـارةِ الشّـيخ، عدلنـي ثـمّ نفـض جلبـابي مـن الـتّراب وضمّنـي بـين ذراعيـه وخـرج.

يتضبّـب المشـهد، أتبخّـر ثانيـةً، أعـوم مـع الدّخـان، كأنّي، في هـذا العـالم، لا مسـتقرّ لي ولا حـدود أو ملامـح.

حسيب الجبل

أخـذتْ المومياوات تقـترب، لكـنّ الجبـلَ بـدا اسـتفاق، علَى كلّ صخـرةٍ كان يرتسـم وجـه، ثـمّ يقـبّ، يتجسّـد شـيئًا فشـيئًا، يصبحـون رجـالًا بهيئـاتٍ عملاقـةٍ، يقفـزون ينفضـون عنهـم الـتّراب، يقفـزون مذّهبـين، يتألّقـون في وسـطِ العتمـةِ، مقنّعـين بأقنعـةٍ فضيّـةٍ، بـدوا قدمـوا مِـنْ عُمـقِ التّاريـخِ، ورؤوسـهم ممـدودة للأمـامِ كـرؤوس الآلهـة المنقوشـة عـلَى جـدران المعابـد.

تُستعاد الحياةُ، تنفتح بطونُ الصخور كمحّارٍ، تقبّ منها عرائسٌ لهنّ شعورٌ من نارٍ، ووجوهٍ كموجِ البحرِ، ليس لهنّ سيقانٌ ولا أذرعٌ، بل أطراف كالغراء زلقة الملمس، تلتصق بالمومياوات، تقتلعها مِنْ أماكنها، ترمي بها إلَى حيث فضاء السّماء المُظلِم، تُسمع أصواتُها صراخًا. يدخل الرّجال المقنّعون إلَى عظام المومياوات بالسّيوف، يفرّقون العَظم، كما لو أنّهم يجزّونه، يبدّدونه متهشّمًا علَى أطراف الجبل.

اندفعتْ «أبوفيس» إلَى أعلى زاعقةً بالفحيحِ، نفثتْ بخارًا كثيفًا من منخاريها، رائحتُه عفنة، راحتْ تلفّ في حلقاتٍ وهي تفرش علَى كُتلِ الظّلام نارَها، بدا الظّلامُ يستوقد، وبدتْ «أبوفيس» تسعَى إلَى إشعال متن الجبلِ، كانتْ قدْ ارتكزتْ علَى قمّته ومضتْ تقذفه بالحُممِ، في حين تراصف الجنود المقنّعون والعرائس كشبكةٍ تُبعِد الحممَ عَنْ الجبلِ، بلا جدوَى، كانتْ النّارُ أشدّ، أخذتْ ألسنةُ اللّهب ترتفع، ترتفع من بين الصّخورِ، وسمعتُ للجبلِ أنينًا، كأنّما جسدُه يسيح، فيما «أبوفيس» تنخفض مع انخفاض المنحدرات الصّخريّةِ، وكلّما انخفضتْ، طارتْ النّارُ مِنْ فمِها.

فارتْ أحشاءُ الجبل، «أبوفيس» لمْ تترك ثقبًا أو حفرةً إلّا وأغرقتهم بالحُممِ، وشعرتُ بالتّوابيت المستريحة في بطون الأنفاق تتشظّى، يهرب المحنّطون منها، تلتهمهم

النّــارُ، يثبــون مِــنْ أفــواهِ الحُفــرِ مشــتعلين، وسرعــان مــا يتحوّلــون إلَى ومضــاتٍ نافقــةٍ.

جدائــلُ الظّلامِ تتضفّــر أمام عينيّ، مِنْ جديدٍ.

وبينــما يحترق كلّ شيءٍ حولي، أصرخ:

- «أبوفيــس»، عودي إلَى صورتكِ الأولَى!

(٣)
عَـينٌ مُقتَلَعةٌ مِنْ أثرٍ قديمٍ

المسحور

بوّابـة «خنسـو»[٣٩] قنطـرة، تسـحب المـاءَ مِـنْ مجـرَى النّيـل وتدفّقـه داخـل المعبـدِ دمًـا، يتفـرّع في قنـواتٍ عنكبوتيّـةٍ تجـري لأسـفلٍ منحـدرةً حتّـى تصبّ علـيّ داخـل البحـيرةِ المقدّسـةِ باسـمي، تضيـع الشّـمس خلـف تلابيـبِ الغيـومِ، تصبـح بـؤرةً واهنـةً مِـنْ ضـوءٍ، سرعـان مـا يفتـك بهـا الظّـلام.

تتمـدّد أشـجارٌ مِـنْ الشّـوك وتـضرب حـول كلّ جـدرانِ المعبـدِ، تتداخـل في بعضهـا البعـض، تصبـح نسـيجًا محنّطًـا

مِـنْ الحطـبِ المتفحّـم، يترامَـى مِـنْ كلّ الاتّجاهـات، يلتـفُ علَى الأعمـدةِ، يكفّنهـا بسـماجِه.

وهنـاك، فِي شريـطِ النّيـل، تُولـد تماسـيح، تلتقـط سـيقان المراكبيّـة تنتزعهـا، تلقيهـا عـلَى الضّفـافِ، يهـدر المـوجُ مِـنْ حولِهـا، تتقلّـب المراكـب فِي بطـنِ الميـاهِ، يتصايـح الواقفـون علَى ضفتـيّ النّيـل، يتراكضـون يحاولـون إنقـاذ مـا يُمكنهـم، يسـتفحل الـدّمُ، تـزداد كثافـةُ المـاءِ، يغـلي، يصعـد الـدّمْ حمـمًا، تثـب التّماسـيح مخضّبـةً بالدّمـاءِ، تغـرس أنيابَهـا فِي كلّ لحـمٍ طـريٍّ مُتـاحٍ وفِي كلّ الأخشـابِ التـي تطـوّف عـلَى سـطحِ الـدّم.

لسـتُ غاضبًـا، بعْـد، لكنّـي أضبـط ملامـحَ العـالم الـذي سـأختّلقه.

لـن يصبـح بإمـكانِ أحـدٍ أنْ يُـدرك، كلُّ شيءٍ سـيصبح نافقًـا عـلَى الضّفـاف، الأسـماكُ التـي سـتمتلأ خياشـيمُها بالدّمـاءِ سـتفترش الشّـواطئ، لحـمًا عفنًـا، سـتتصاعد الدّمـاءُ إلَى أعنـاق المعابـدِ، والبيـوتِ، بـلْ سـيتوغّل الهـلاكُ داخـل متـون المدينـةِ، ولـن تجـري الدّمـاءُ إلَى الشّـمال، سـتجري عرضيًـا، كأجنحـةٍ تنبـذر مِـنْ أحشـاءِ المـوتِ، وبـدلًا مـنْ أنْ يكـون مطـرٌ، سـتكون دمـاءٌ، كأنّ قلـبَ السّـماء انفجـر، تفسّـخ، فسَـال.

الشّـلالات القانيَـة سـتهطل فـوق رؤوسِـهم، وسـتهبط

معها الضّفادع، ستغطس في حلوقِهم، ستقتات على كلّ نافقٍ، ستلطّخ بأرجلِها ملامحَهم، ستتدافع في تيّاراتٍ متلاحمةٍ تركب بعضها بعضًا، تقتحم البيوتَ، النّوافذ، تتسلّق القِباب والمباني، سيتكدّس بها فراغُهم، ستصير الحفةً لأجسادِهم، سيصرخون، ومهما فعلوا، سينقطع عنهم الوعي بمستجدّات البعث.

نقيقُ الضّفادعِ صاخبٌ داخل رؤوسِهم، يعلو على صياحِهم، لنْ يسمع أحدٌ صرخةً، إنّما سيسمعون نقيقًا متواصلًا لا يهدأ، سيهرعون إلَى الشّوارعِ عرايا، سيفرّون مِنْ منازلِهم، ستنكشف سوءاتُهم أمام أعينِهم التي ترَى الفزعَ متجسّدًا، ستمتلأ الشّوارعُ بهم، سيَلقَوْن الرّعب هناك كما في البيوتِ.

مِنْ الجيَف والجثث سينبعث الذّباب هائجًا، يطنّ، يعزف نغمًا متّسقًا والنّقيق دونما نشاز، سيرتفع في أسرابٍ متسابقةٍ نحو الأفق كالقراطيس، ثمّ يعمَر الفضاء، سيلتهم مواشيهم وأبدانهم وأعينهم التي رأتْ الهول، يتغذّى علَى بصائرِهم، ستذوب أجسادُهم فيما ينسرّها، سيندفع نحو كلّ الثّقوب والحُفرِ، ستبخّه عليهم القنوات والمجاري والأنابيب والأنفاق والمصارف، وبينما يهرولون جزعًا وتساؤلًا، سيغطّيهم الذّباب كسجّادةٍ علَى رؤوسِهم.

ستتقشّر جلودُهـم، سيأكلها الوبـاءُ، لـنْ تبقَـى غـير عظامِهم، سيركضون في الشّـوارعِ هياكلَ، سـيحتمون بأجسـاد بعضِهـم البعـض وتنتقـل العـدوَى وتسـتشري فيـما بينهم، ثمَ مـا أسرع أنْ يصبحـوا جميعًـا مجرّديـن مِـنْ اللّحـمِ، سيسـود بينهـم معنـى جديـد للعدالـةِ، وسـتبدو المصائـرُ لا نهايـةً لها. كأنّهـا انطلقـتْ مِـنْ أقدارِهـم صـوب العَـدم.

يقـوم الجعـران، يقعقـع، تصـل رأسُـه أبعَـد مِـنْ أبصـارِ مَـنْ نجـا منهـم، سـيرشّ عليهـم جعارينَـه الصّغـيرة، سـتتكاثف كحبّـات الصّخـر السّـوداء وتتسـاقط عليهـم، ومِـنْ عنْـد حـوّاف الجبـال المتهالكـة سـتطير نحوهـم أسرابٌ مِـنْ الجـراد، كأنّهـا رصاصـات بلـونِ الـدّم، رصاصـات أسـطوريّة، سـتُكمل الوجبـةَ التـي تُركـتْ مِـنْ أنصارِهـا، جيـوش الحـشرات ستتسـلّح بالنّهـم والعَطـش، ثـمّ تضـخّ مـن أفواههـا النّـيران، ليحـترق كلُّ مَـنْ قُـدّر لـه أنْ يحتمـي.

أنـا صـورة القـوى المتناغمـة الهـادرة، التـي تفيـض بالـسّرّ، أنـا مـرآة السّـماء، ومبلَـغ التطهّـر والنّقـاء، سـوف أهلِـك كلَّ مـا كان، ليكـون مِـنْ جديـدٍ.

كان كلُّ شيءٍ يشـتعل، وكلّـما سـقاه الـدّمُ، اشـتعل أكـثر وتوهّـج.

الطّوّاف

كحيّـةٍ تلتهـم ذيلَهـا، كطفـلٍ يمـصّ إبهامَـه، أراني محلّقًـا فِي دورةٍ مُغلقـةٍ، أسـتمدّ مِـنْ المـاضي جوهـرَه، ومِـنْ الغيـبِ سرَّه، كأنّي مـادةٌ طاهــرة منتعشــة في ســياقِ الحيـاةِ الــلّا نهائيّــةِ.

عـلى قارعـةِ وادي الملـوك، الجبّانـة، حيـث سـيُدفن أبي، كبـشٌ بقرنـين ملولبـين، وثعبـان كوبـرا ممشـوق الـرّأس، وفي هودجِهـا المعلّـق تتهـادّى «ماعــت»، تقـف فيـما خلفهـا «أميـت»[٣٠]، المهجّنـة، الأنثـى المفترسـة، رأسُـها كالتّمسـاحِ،

نصفُها العلوي علَى هيئة الأسد، والسّفلي علَى هيئةِ فرس النّهر.

«أميت» تنتظر أنْ يطبّ قلب أحد الموتَى علَى ميزان المحاكمة التي يرأسها «تحوت»[٣١]، حيث إذا أصبح وزنُه أثقل من ريشةِ «ماعت»، تنقضّ عليه تلتهمه، فيتحوّل، عند أنْ تهضمِه، إلَى عناصرِه الأوليّة التي كان عليها عنْد بدايةِ خلقِه، فيما قد يصبح ميّتٌ من هؤلاء المغضوب عليهم أسدًا شمسيًّا بمصر العُليا، أو تمساحًا بمصر السّفلَى، في كلّ الأحوال هو يحرَم من العبورِ إلَى العالم الآخر جسدًا وروحًا، ويبقَى معلّقًا هناك، في العالمِ التّحتي، يخدِم العابرين.

وها هم يشرعون في إتمام مراسم تحنيط أبي.

يتقدّم كاهنٌ مراسم التّحنيط، في يدِه عصا بصاريةٍ، معلّق عليها جِلد «أبيس»[٣٢] الثّور، بلا رأسٍ، إنّه الجِلد الذي دثّر فيه «سِت» أبي بعْد أنْ أهلَكه، وألقاه في النّيل، وللقَدرِ؛ حَفِظ هذا الجلدُ أبي مِن جعله عُرضةً لبطونِ السّمك وهَدرِ الأمواج.

يلتفّ الكهنةُ حول جثمان أبي، ينثرون الماءَ المقدّس، يقرؤون البرديات، تنفرد أمام أقدامِهم السّجاجيد، يخطون علَى تؤدةٍ، الزّورق يمرّ وسطهم، محمولًا علَى أكتافِ الحَرس، مؤخّرته علَى زهرِ اللّوتس، ومقدّمته

بـرأسِ لبـؤة، فـوق الـزّورق بعـضُ العـمّال يسـتكملون زخرفـةِ التّابـوت، يطعّمونـه باللآلـئ والجواهـر، وينقشـون عليـه جميـعَ ألقـابِ أبي، أعمالـه ومآثـره، يرسـمون وجـوه آلهتـه، ووجـوه المعبـودات المختَلفـة علَى أشـكالِ الحيـوان، يدقّـون جوانبَـه بالمسـامير المقـروءة عليهـا الطّقـوس، يبطّنون حشـيةَ التّابـوت بالمفـارشِ المزخرفـةِ والحُـلي وبرديـات كتاب المـوتَى، كي يُمكـن لـه أنْ يتلوهـا علَى «ماعـت» التـي تنتظـر في الأعـلَى.

أمـام غرفـةٍ مطليّـةٍ بالذّهـب مِـنْ داخلِها وخارجِها يسـتقرّ الموكـب، يُحمَـل التّابـوتُ إلَى الدّاخـل، يضعـون أجزاء أبي علَى منصّـةٍ، ترافقـه أمّـي، يلملمـون الأجـزاءَ، يرتّقونهـا، يركبّونهـا علَى بعضهـا البعـض، فيـما انشـغل بعضُهـم في عـدّ القرابـين وحصرِهـا، ثـمّ ذبحهـا وِفـق المراسـم، واسـترضاء الآلهة.

«أنوبيـس»[٣٣]؛ الإلـه المُطهّـر، يقـف ثابتًـا عـلَى مدخـل المقـبرة، يُـشرِف علَى عمليّـة بعـث أبي، يرعَـى الكهنـةَ فيـما يحنّطونـه، يبعـث إلَى أدمغتهـم الصّيـغ السّـحريّة والنّصـوص المقدّسـة، سـوف يُبـاشر وزن روح أبي ومحاكمتهـا، وسـوف يفتـح لـه الطّريـق إلَى العـالم الآخـر.

سـيدثّرك «أنوبيـس» يـا أبي في كفنِـك بعْـد أنْ يجمّلـك ويزيّنـك ويضمّـدك، سـتصعد عـلَى هيئتِـك القديمـة، سيحرسـك، سـينوب عَـنْ الإلـه الأكـبَر في مرافقتِـكَ.

الكهنـةُ يلصقـون الأعضـاءَ ويخيّطونهـا بسـوائلٍ لهـا رائحـةُ النّشـادر، تمتـزج في بعضِهـا علَى بـطءٍ، أحـدُ الكهنـةِ يحمـل عـلَى طبـقٍ رخامـيٍّ العضـو المتبقّـي، يدسّـونه في الفـراغِ بـين ردفي أبي وهـم يهمهمـون، يبـدو العضـو منتصبًا.

ينتـشر البّخـورُ، وتعلـو التّرانيـم الطّقسـيّة، وفي زوايـا الغرفـة ركـع بعـضُ الكهنـةِ يبتهلـون، وآخـرون بـدأوا يعملـون عـلَى جسـدِ أبي، يوضبّونـه للتّحنيـطِ، يمسـحون جسـمَه بالعطـرِ، يدلقـون مِـنْ القواريـر الزّجاجيّـةِ سـوائلَ دافئـةً داخـل فمِـه وبطنِـه، يُفرِغـون أحشـاءَه، يحفظونهـا في أوانٍ نحاسـيّةٍ وفضيّـةٍ كيـما تُرافقِـه في رحلتِـه، ينظّفـون جـوفَ بطنِـه بدقّـةٍ، يحشـون فتحتـي أنفِـه بالقُطـنِ، ثـمّ يجـزّون شـعرَ رأسِـه بمـوسٍ.

يـدورون بالمـاءِ علَى جثمانِـه، يرفعـون ذراعيـه فسـاقيه، يشـطّفونه، ثـمّ يجفّفـون المـاء ويدعكـون جسـدّه بالزّيـوت.

يكفّنونـه بالكتّـان وهـم يُبـاشرون تلاوتَهـم، ويتركـون قضيبَـه واقفًـا نافـرًا مـن خـلال فتحـةٍ في القـماشِ.

يطوّقـون أمّـي ويولونهـا ظهورَهـم، ترفـع رداءهـا، تجلـس علَى أبي، تلتحـم فيـه، تقـوم وتقعـد، يتلـوّن جسـمُ أبي، يسـتردّ دمـاءَه، تشـهق أمّـي في نشـوةٍ، يضمّهـا أبي، تـدبّ فيـه حيـاةٌ رمزيـة، بينـما أصـواتُ الكهنـةِ مِـنْ حولِهـما تـترَى متناغمـةً ترتّـل.

بعْـد قليـلٍ، تنسـلّ أمّـي مِـنْ بينِهـم، إلَى الخـارج، تُبـاشر مراسـم دفـن أبِي التـي بـدتْ سـتطول، وفيـما تفعـل، كانـتْ بطنُهـا تنتفـخ، تنتفـخ بِي، مـا أسرَع تكوينـي!

تسـعةُ أشـهرٍ تصبـح تسـعَ لحظـاتٍ خاطفـةٍ، أرَى أمّـي، وأراني باسـقًا أطـلّ مِـنْ رحمِهـا، وأرَى «واجيـت»[٣٤]؛ الأفعَـى الخـضراء، تربّـت عـلىّ ملتفّـةً زاحفـةً، ثـمّ تقطّـر في فمِـي مِـنْ بـين أنيابِهـا، تقطّـر حليبًـا.

أنمـو، أترعـرع، في الخـلاء، تعـوّذني مبـاركات أمّـي، وذكرَى أبِي، بعْـد أنْ يطردنـا «سِـت» مِـنْ القـصر الملـكي إمعانًـا في إحساسـه بالانتصـار عـلَى أبِي، أجـري بـين السّـهول، فـوق رمـال الوديـان، أعـبر المعابـد والحصـون والأنهـار، أتبـيّن المعـارف بالتّجربـةِ، أتعلّـم الأسرارَ في قُـدس الأقـداسِ، وأمّـي هنـاك؛ يلتئـم حـول مجالسِـها النّـاسُ، يسـتمعون لهـا، لحكايـةِ أبٍ مغـدورٍ، طافـتْ المُقاطعـات والأقطـار تبحـث عَـنْ أشـلائِه، إنّهـا الأم التـي اسـتطاعتْ، رغـم فقـدان الأمـل، أنْ تُنجـب ولـدًا، عـلَى لـونِ أبيـه، عـلَى هيئتِـه، بـذات القُدسـيّة المُباركـة، ونفـس التّوثّـب إلَى اسـترداد الكرامـةِ، والحافـز الدّائـم إلَى اسـتعادةِ المكانـة المُهـدَرة.

عـلَى نَهـج أبِي؛ الطّيـب إلَى أبـدِ الدّهـرِ، مَـنْ يمسـح دمـوع الخَلـق، سـأنضج، جسـدي فـارع كجسـدِ النّيـل، لـوني كالقمـحِ، أولـد وأزدهـر مِـنْ داخـل الأرض لأخضّـب السّـماء.

حسيب الجبل

خارتْ كلّ القوَى، مسحتُ ببصري أبسطةَ الأفق، وتساءلتُ كيف يُمكن أنْ ننجو مِنْ هذا الشرّ المُستفحِل؟ كلّ الأسلحة نفدت علَى ما يبدو، إنّ الرّيحَ تدوّي، و«أبوفيس» تترنّح هناك مزهوةً بانتصارِها، ولمْ أكنْ أستطيع أنْ أرَى غير الشُّعَل التي تضوّي مثل النّجوم القريبةِ، والسّدم الرّماديّة أعلَى الجبل تجوّل علَى استراحتِها.

وبعْـد أنْ لاح الظَفـر التّـام لــ «أبوفيــس» واسـتبدّ بهـا الفَخـر؛ بـدا يتقلّـب الجبـل.

ينفلـق الجبــلُ إلَى شــطرين، وبينهــما يمتــلأ المضيــقُ بالمــوجِ الهـادرِ، وعنْـد أنْ ينقســم، تبـزغ مِنـه أسرابٌ مِـنْ صخـورٍ مجنّحـةٍ، مئـات الصّخـور، وفيـما كانـتْ الصّخـورُ تنسـلخ مِنـه، تتحـوّل إلَى مراكــبٍ حجريّــةٍ، تخفــق إلَى أســفلٍ، تتدافـع كالشّــهبِ، حيـث المـوج، تعبّــي بطونَهــا بالمــاء، وسرعـان مـا تحلّـق صاعـدةً، بشـكلٍ دوريٍّ، تتقلّـب تكـبّ المـاءَ، كيـما تطفـئ النّـيران التـي اشـتعلتْ في جسـدِ الجبــلِ.

«أبوفيــس» تحــاول أنْ تعوّقهــم، تــضرب بأجنحتهــا تُسِــقطهم في لجّـةِ الميـاه، وبـدتْ محاولاتهـا عبثيّــةً، كلّــما أسـقطتْ صخـرةً مجنحـةً وُلـدتْ مِـنْ أحشـاءِ الجبـلِ أخـرَى، دون انقطــاعٍ.

دارتْ «أبوفيــس» حــول جوانــب الجبــل تنفــث الحمــمَ ثانيـةً، لمْ تسـتطِع أنْ تلاحـق الصّخـور التـي أنقـذتْ الجبـلَ، في حـين بـدتْ حانقـةً، تصيـح:

- أهؤلاء هــم جنودك أيّها الكَهل؟!

في غمـرةِ الانطفـاء، تضخّمـتْ الحيّـاتُ والذّئـاب والأرانب يصـدّون عَـن الجبـلِ النّـارَ، تطاولـتْ قاماتهـم، صـاروا عـلَى

رؤوس حيوانـات وجسـوم عمالقـةٍ، سـدّوا كلّ الثّغـرات التـي كان بإمـكان «أبوفيـس» أنْ تتسـلّل منهـا إلَى الجبـلِ باللّهـبِ.

سـمعتُ صراخهـا الحانِـق، وهـي تنقـضّ مِـنْ جديـدٍ وعلَى انخفـاضٍ أشـدّ، تهبـط بسرعـةٍ إلَى أسـفلِ، تـدور في حلقـاتٍ، تتألّـق بطنُهـا بالنّـار، تلسـع بلسـانِها المـزدوج ظهـرَ الجبـل، كسـوطٍ، وبـدا لسـانُها ينـزّع ثـوبَ الجبـل الصّخـريّ فتتفـرّق الحجـارةُ متراميـةً إلَى ظُلمـةِ السّـماءِ.

في ظـلّ انشـغالها بالعجـزِ، أدكّ عصـا في بطـنِ الأرضِ، تتشـقّق الصّخـورَ، تنبثـق تماثيـلُ قطـطٍ حجريّـة سـوداء، أعينهـا ملفوفـة بالكتّـان، تسـتطيع «أبوفيـس» أنْ تلمحهـم وهـم يُسـتبَعثون، والأغطيـةُ الكتّانيـةُ تتسـاقط عَـنْ أعينِهـم، فتشـعُ، تـصرخ «أبوفيـس» فزعـةً، تعـرف أنّهـا هُزمـتْ مُـنْ قبْـل علَى يـدِ هـؤلاء الجنـودِ، تلـمّ لسـانَها وتحلّـق مبتعـدةً إلَى السّـماء، القطـطُ لا يتركـون لهـا فرصـةً سـانحةً للهـرب، تتضخّـم أجسـادُهم، تلمـع أعينُهـم، تسـتطيل أظافرُهـم، يمـدّون أيديهـم نحـو «أبوفيـس»، يمـوؤون في قـوّةٍ راعـدةٍ، كأنّهـم يـزأرون، يتطابـق لـون أجسـامهم والظّـلام، تتداخـل أياديهـم وتتشـابك الأظافـر المسـنونة، يصبحـون شـبكةً محلّقـةً، يلتصقـون بجسـدِ «أبوفيـس»، يقتحمونهـا بمخالبِهـم، تتقلّـب في الهـواء، تـضرب بذيلِهـا عبثًـا، يبـترون أجنحتهـا، تفـحّ بصـوتٍ متعـذّبٍ.

يخفت وهجُ النّار الطّالعة مِنْ فمِها، يتقطّع، القططُ تتكالب عليها، يغرسون مخالبهم وأنيابهم في بطنِها كخطاطيفٍ، تقع مِنْ حالقٍ، تسقط متكوّمةً في ساحةِ المعركةِ، علَى صدرِ الجبل، لا تستطيع الفكاكَ مِنْ شبكةِ القطط.

يتجمّع الجبلُ ثانيةً، تلتحم به صخوره، يضرب شعاعٌ مِنْ شمسٍ عينيّ، أدنو مِنْ «أبوفيس»، تئن، أرشّها بالماءِ المقدّس فيذوب جلدُها، تفحّ في ألمٍ وهي تتلوّى، تصيح بصوتٍ متهدّجٍ:

- لا تظنّ أنّك انتصرت أيّها الكّهل!

- هذه المرّة علَى الأقل.

- سيّدي لا يموت.

- سيضطّر أنْ يعيش في مملكةِ الظّلام.

ورغم هزيمتها تضحك، تنبعث منها رائحةٌ كالشّواءِ.

- هل تعتبر هذه معركة؟

- أعتبره انتصارًا.

- آه أيها الكهل، أنتَ لا تعرف شيئًا، إنّه انتصارٌ

مؤقّــت إلى أنْ يكتمــل الجنــود.

- ســأكون مستعدًّا في كلّ مرّةٍ.

- غيري سـيطاردك، مَنْ هو بمثل ألف قوّةٍ مِنْ قوّتي.

- ألا تخشـين أنْ أُهلِكَكِ اليوم بضربةٍ واحدةٍ؟

- ألم أقل إنّك لا تعرف شيئًا!

وزحفتْ نحوي قليلًا:

- مثلي لا يُهلك.

- مثلـك يعود إلَى الأرض.

ونزلــتُ عليهــا بالعصــا، فحّــت وهـــي تفتــح فكّيهــا، صحــتُ فيهــا:

- ارجعـي إلَى صورتك الأولَى.

ضمّــت مــا بقــيَ مِــنْ أجنحتهــا، وراحــتْ تضمــر، وكلّــما تقلّــص جســدُها فحّــتْ، تحــوّل فحيحُهــا إلَى أنّــاتٍ خافتــةٍ، وتحــوّل ذيلُهــا إلَى جــذرٍ، ولســانُها إلَى لُحــاءٍ، بينــما أجنحتهــا راحــتْ تتصاغــر، تتبــدّل إلَى أفــرعٍ، وانطفــأتْ النّــار تمامًــا، و«أبوفيــس» تشــدّها الرّيــحُ، يلفظهــا الجبــلُ، تطــير في

الأفـقِ، تحـطّ هنـاك، جـوار التّمثالـين، عـلى هيئتها التـي تخفّـتْ فيهـا، شـجرة جمّيـز، صـارتْ عجـوزاً، يشـقّ عليهـا القيـام ثانيـةً.

الطَّوَّاف

تُقرَع الطُّبولُ، تدوّي الأبواق، يُحيِّد الحرّاسَ أنفسَهم ويكتفون بإبعاد الحشودِ عَنْ دائرةِ القِتال، يلتفّون يحوّطون الحَلقة المبلَّطة بالحِجارةِ الملوّنةِ وهم ثابتون.

«سِت» يلمع في درِعه الذّهبي، أراني واقفًا أمامه ماشقًّا رمحي، يهتِف ساخرًا:

- ابن أخي البريء، كنتُ أحسبك صبيًّا لنْ يهجُر الحقول والزّراعة! هل تعرِف ماذا سأفعل بك اليوم؟

دنوت بالرّمحِ مِنْ صدرِه فتراجع ضاحكًا في شماتةٍ:

- يدُك طريّة علَى الطّعن يا فتَى.

حشودٌ تقف تتفرّج مِنْ عنْد أسفلِ الدّرجَ الرّخامي، تلوّح بأيديها، تهتف باسمي، تقف أمّي بينهم يتّقد علَى وجهِها الحماس، تهتف معهم بعْد أنْ استطاعتْ أنْ تستقطِب عددًا لا يُستهان به مِنْ الكهنةِ وخَدم القصر والمعابدِ، فضلًا عَن الشّعب الذي تأسّى قديمًا علَى أبي، وتجمّع لنناصرني.

- «سِت»، هل ظننتَ أنّ أبي مات؟!

شقّ بضحكتِه سقف المعبد وصاح:

- لمْ يمت بالطّبع..

وصفعني برمحِه علَى خدّي:

- إنّه يسكن الظّلامَ هناك، حبيسًا في مملكتي.

- أحسدك علَى هذه الرّوح يا «سِت».

- بلْ أحسدك علَى جرأتك وطموحك يا «حورس» المسكين.

وانقـضّ عـليّ، رفعـتُ الـدّرع أحتمـي، ضربـه برمحِـه مرتَـين فانبَعـج، ركعـتُ، وكاد يسـقط بالرّمـحِ عـلَى رأسِي لـولا أنْ دحرجـتُ نفـسِي مبتعـدًا عَـنْ مسـارِه، انفلـتْ رمحـي مِـنْ يـدي، رأيتُـه يهـرول قافـزًا علـيّ مِـنْ موقعِـه، صرخـتْ أمّـي، وانكتمـتْ الحشـودُ، لكنّـي سرعـان مـا اسـتللتُ سـيفي ورشـقتُه نحـوَه، عطَـف كوعَـه بالـدّرع وخـرج مِـنْ قلـبِ الـدّرع دخـان أسـوَد، اسـتطاع أنْ ينحنـي برأسِـه فمـرَق نصـلُ السّـيفِ لامعًـا جـوار قرطِـه وانغـرس في الجـدارِ خلفـه.

- مَـن علّمك القتالَ؟

وحدَج أمّي هازئًا:

- لا يعلّـم الرّجـالَ القتالَ إلّا رجالٌ مثلهم، أمّا النّسـاء..

وزعق صارخًا:

- يجلبن أشـلاء أزواجهنّ مِنْ علَى الضّفاف.

واندفـع نحـوي، توالـتْ ضربـاتُ رمحِـه عـلَى ظهـري، ضربـةٌ فأخـرَى، أنبطـحُ رغـمًا عنّـي، الحشـود يشـهقون خوفًـا عـلَى مصـيري، أو لعلّهـم يشـهقون عـلَى مصيرِهـم مِـنْ بعْـدي، غـير أنّ أمّـي في عينيهـا إيمـان بمقـدرتي، كـشّرتْ وهـي تصيـح:

- انهـض، لَمْ ينتهِ القتال بعْد.

صاح «سِت»:

- هـل ظننتم أنكـم اتّفقتم علَى الإطاحة بِي؟

ورمـق الكهنـة والموظّفـين فبـدا التخـوّف عـلَى وجوهِهـم إنْ مالـتْ دفـة المعركـةِ لصالحِـه بعْـد أنْ تألبـوا عليـه.

طويتُ جسدي والتحمتُ برمحِه، ثبّتُّه علَى الأرض، ثمّ انتشلته مِنْ يدِه في عنفٍ، تراجع مذهولًا مِنْ قوّتي المفاجئة.

ارتكزتُ علَى الرّمحِ واسـتقمتُ واقفًا:

- أراك عجـوزًا يا عمّي خارتْ قواك.

اكتسَى وجهه بتعبيرٍ سـاخرٍ وابتسم:

- في ذراعـي هذه قـوّة مئة صبيٍّ مثلك.

ورفع عضدَه يشـدّ علَى عضلاتِه:

- لا عقابهـم لي بالنّفـي ولا إبعـادي عَـنْ القـصر سيحسّـن الأحـوال، سـأعود لأقتـصّ منهـم جميعًـا، بعْـد أنْ تمـوت عـلَى يـدي مثلـما مات أبوك، لكن هـذه المرّة لنْ أكتفـي بتمزيقك، بـلْ سـأحرقك، وقتهـا لـنْ تبقّـى أشـلاؤك كي يلملمونها.

- أشلائي حيثما ينبغي أنْ تكون أشلاء أبي، مقدّسة يا «سِت».

طار نحوي بسيفِه غاضبًا، استقبلتُه علَى درعي وطوحتُه فارتطم بعمودٍ، كدتُ أنهال عليه ثانيةً لولا أنّه زحف في سرعةٍ وقبض علَى ساقي، أسقطني علَى ظهري، لكنّه قبْل أنْ يشبّ ناهضًا اعتليتُه، ضممتُ قبضتي ونزلتُ علَى رأسِه، ترنّح، بركبتيّ تمكّنتُ مِنْ ساعديه، واحتجزتهما أسفل منّي، دُست عليهما، نازع، حاول أنْ يفلتهما، بلا جدوى، وبينما كانتْ يدي تلكم رأسَه وتنزع قرطيه فيكزّ علَى فكّيه، أخذ جسدي يتمعدَن، يكتسب لونًا ذهبيًا، وخرج مِنْ خلف أذنيّ قناعٌ أسود، تفرّع عليّ، التحم بوجهي، فصرتُ علَى هيئةِ الصّقر، وتثقّل جسمي بالدّروع اللّامعة، وبمنقاري طرقتُ درعَه، في قوّةٍ وصلادةٍ، انثقب، تفتّتْ، تناثر حولَه كشظايا مِنْ زجاجٍ.

شدّ جسمَه، تقنّع بدورِه، خرج قرنان مِنْ رأسِه، وكان شعرُ صدرِه راح يتحوّل إلَى زغبٍ وريشٍ، وسرعان ما رفعه مِنْ تحتي جناحان قُدّا مِنْ ظهرِه، تثبّتا في الأرض وأقاماه، نهض بي، اندفعنا معًا، طرنا، سقطنا وسط الحشود، تراجعوا، التفّوا حولنا، التحمنا، كتمتُ أنفاسي، شددتُ جسدي، خرج جناحاي، تشابكتْ الأجنحة، دُرنا في الهواءِ، اصطدمنا بالأعمدةِ فمضتْ تتهاوَى متهشّمةً

فوق رؤوس الجموعِ، تفرّقوا يحتمون بكثبانِ الرّمل عنْد آخر المعبد، فيما بأعينهم يراقبون المعركة، ونحن نكسّر الحِجارةَ والأعمدة.

أحاطني بجناحيه، بينما استطعتُ أنْ أُحكم قبضتي علَى سيفي، فمرّرتُه عبر جسمِه، شجّ درعَه واستقرّ في أحشائِه، تقلّص، نفضني عنه، زام، حلّق لَمّا خلف بوّابةِ المعبد، سمعتُ صرخته وهو يدور في الهواء، يقع هناك هامدًا، وجّ الغبارُ وهاشتْ الأتربةُ أمام الأعين.

حططتُ بقدميّ واقفًا، هزّتْ أمّي رأسَها فَرِحةً، تنفستُ بسرعةٍ، وسحائبُ الغبارِ تطفو حول بوّابةِ المعبد.

ولمْ أكد أخلَع قناعي وجناحيّ حتّى دارتْ فوق رأسِي حلقة ترابٍ كثيفة، ارتمتْ مِنْ خلف البّوابةِ بسرعةٍ كطرفةِ عينٍ، حاولتُ صدّها، لكنّها قلبتني رأسًا علَى عقبٍ، فقدتُ اتّزاني، كمّمتني الحلقة، غامتْ الرؤيةَ، طارتْ بي الحلقةُ مِنْ بين الحشودِ إلَى حيث المنصّة، لمّني «سِت» داخل جناحيه، تحوّل ريشُ أجنحتِه الأسود إلَى أسنّةٍ مشتعلةٍ تطقطق شررًا، غرس الأسنّةَ في جنبيّ واحدًا واحدًا، عضضتُ علَى شفتيّ، ناحتْ أمّي هناك مِنْ بين الجموعِ المراقبةِ، لمْ أرها، لمْ أكنْ أرَى شيئًا، كانْ جسدي مُحاطًا بكاملِه بالغبار الكثيف.

رأيتُ عينيّ «سِت» تلتمعان احمرارًا، كلبشتُ في

صدرِه لكنّه كالب عليّ، لهبُ عينيه لفَح وجهي، احترق جِلدي، أدرتُ وجهي أكزّ على أسناني، كان دمي يسيل مِنْ خصري ومِنْ ظهري ورقبتي، ينحَدر إلَى فمي، ذُقتُ طعَم دمي كما ذاق أبي.

في لحظةٍ خاطفةٍ كان «سِت» قدْ شواني بداخلِه، وبينما أحترق، دبّ في عيني سنّ جناحِه، خرج بها، صفّاها، ورماني أمامه مُتهالكًا.

فُزعتْ الحشود، قفزتْ أمّي، تركها «سِت» ترتمي عليّ وتحاول سدّ جراحي، ووقف هو متباهيًا، أدار عينيه في الكهنةِ منذرًا، رفع جناحَه لأعلى، كانتْ عيني هناك، تقطُر الدّم والسّوائلَ، وتلمَع ببريقٍ غمَر العيون.

فرّتْ الحشود هاربةً عندما استخلص «سِت» عيني مِنْ سنّ الجناحِ ونثر دماءها عليهم، لاحقهم بالنّارِ، بخَ مِنْ فمِه كُتَل اللّهيب، اكتوَى قلبُ المعبدُ، اشتعَل، وفيما كان واقفًا هناك يُباشِر بأسَه وانتصارَه، ركع الكهنةُ جميعًا تحت قدميه يستسمحونه، لمْ يبالِ بهم، أطلَق صرخةً مدويّةً ارتجّتْ لها أركانُ المعبدِ، وضربني بقدمِه فدارت أمّي معي نتدحرج إلَى أنْ غطّانا الرّمل في أرضِ المعبدِ.

أبصرتُ شعاعًا قادمًا مِنْ عينِ أمّي، تراكمتْ دموعُها في قاع عيني المقلوعة.

لَمْ أكـن أسـتطيع تحريـك أطـرافي، ولا كان باسـتطاعتي تحريـك شـفتيّ كي أودّع أمّـي، مسـدّتني، ناحـتْ عـليّ وهـي تمسّـح ريـش جناحـيّ بأناملهـا.

فقـط كان ثمّـة شـعاعٌ آخـر، أبصرتُـه مُقبِـلًا مِـنْ عنـد بطـنِ الجبـلِ، مدفوعًـا مِـنْ جـوفِ حفـرةٍ مظلمـةٍ، يقطـع الأماكـن في لمـحِ البـصرِ، يمـرّ في جسـدي، يشـقّه، يحملنـي معَـه، أطـوّف كالومضـاتِ، ثـمّ دوّامـةٌ مِـنْ الهـواء تطـوي كلّ المشـاهد في داخلِهـا، تـدور بهـا وتـدور، تعصِـف، حتّـى تتبـدّد مضويّـةً عنـد أفـق الرّؤيـةِ.

أُستَخرج مِـنْ بوّابـةٍ بـين تمثالـين، بوّابـة تنغلـق، وتحصرني في عالمـي القديـم مـرّةً أخرَى.

كأنّي استفقتُ مِنْ حلمٍ!

أسـتردّ أنفـاسِي، أتفقّـد جسـدي، أخبطـه، أحسّـس عـلَى عينـيّ، الشّـمسُ فـوق رأسِي غاربـة، والرّيـحُ تـرفّ بجلبـابي، أسـعل والـتّراب يدخـل إلَى أنفـي، أشـطّف عينـيّ بالمـاءِ، وأسـتعيذ باللـه مِـنْ شرّ الغيبـةِ.

تنفـرط الأرضُ فيـما خلـف تمثـالي «ممنـون»، تنفـرط خـضراء تضمّخهـا ألـوانُ المغيـب الشّـاحبة، يسترسـل التّمثـالان في نشـيدِهما الجنائـزيّ، ذلـك عندمـا أتابـع بعينـيّ الشّـعاعَ وهـو يُفـارِق جسـدي، ليسـبح بعيـدًا،

ويستقرّ علَى ضفّة النّيل، ثمّ يتبدّد في الماءِ.

تُرَى يا جدّي أيُّ سحرٍ هذا؟

ألملم نفسِي، ولا أكاد أقف منصرفًا حتّى أشعر بجسدي يتمزّع، كأنّ إبرًا تغزّه في كلّ مسامِه، كأنّ سيخًا يحشّ أعماق روحي.

أشقّ الجلباب لنصفين رغمًا، لا أحتمل هذا الألم، ثمّة ما ينبعث منّي، كالينبوعِ يتفجّر مِنْ صخرٍ، الدّماءُ تخرج مِنْ عُمقِ بطني، يسحّها فمي، أصرخ.

أغرق في العرق، في الصّراخِ، أشعر كأنّي أتشظّى.

كانتْ ذراعاي قدْ تصلّبتا، تدفّقتْ فيهما عروقُ دمٍ نابضةٌ، مزجتْ بعضها بعضًا، قبّتْ بارزةً عَن جِلدي، منقوشةً علَى رسم جناحين، جناح علَى كلّ ذراعٍ، راحا يتفرّعان، ينتشران مِنْ كتفي، ثمّ إلَى ساعديّ، فكفيّ، واشتعلتْ عيناي، تبدّل محجراهما، صارا مستديرَيْن، إلَى أنْ طقّ منهما ضوء، غمَر المشاهدَ كلّها.

ريشٌ ينبت مِنْ صدري، مِنْ وجنتيّ، مِنْ بين العِظامِ، فيما ببطءٍ، يتكلّس ظهري، تنفر عظامُه خارجَه، يتشقّق الجِلدُ، يتهدّل، فأستطيع أنْ أرَى شفتيّ تتمدّدان متشرّختين، تلتئمان بأنفي، تشرع حوافُهم في

تكويـنِ منقـارٍ، فأنطلـق إلَى السّـماءِ محلّقًـا، تسـتولي عـليّ إرادة أعظـم منّــي، أرفــرف في الهــواء مفزوعًــا.

أرَى العـالمَ كلّـه نقطـةً بعيـدةً سرعـان مـا تتـلاشَى متبـدّدةً داخـل نفـقٍ ظلامي.

أســمع أنــين المــوتَى وصراخهــم، أراهــم يُســاقون إلَى الجحيـم عـبر ممـرّ سـفليّ يحكمــه الــشّرّ.

وأراني عـلَى هيئـةِ الصّقـرِ، وسـط النّجـوم، فيـما لمْ أكـنْ أسـتوعب هـذا الانحـراف في مصـيري.

وعـلَى فنـاء العـالم أشرِف، أحلّـق بـين النّهايـات، أرمّـم هَــدد الأطــلال وأضبــط موازيــن المــوتَى، تلــك شريعتــي، وهـذا قـدري، أحلّـق فـوق كلّ شيءٍ، بهيئـةِ الصّقـرِ، وترتّـع روح الـشّرّ، ترتّـع لا تصدّهـا قـوّة، روح الـشّرّ سـوف تسـكن هـذا العـالم، ولعـلّ معركـةً أخـيرةً، فاصلـةً، تُعيـد ترتيـب كلّ المصائـر، مِـنْ بعْـد.

يتّبع

«أسطورة ثانية»

هوامش

١- رَع: إله الشّمس عنْد قدماء المصريين.

٢- مركب الشّمس: مركب مقدّس يعبر بها رَع النّيل تحت الأرض كلّ ليلةٍ ليُشرق في الصّباح.

٣- تمثالا ممنون: الأثر الوحيد المتبقّى من معبد أمنحتب الثّالث بغرب الأقصر.

٤- الشّاويشة: خرافة أقصرية.

٥- يُرجَى مراجعة الفصل الأخير من رواية الخاتِن للكاتب والصّادرة ٢٠١٦ عن دار مصر العربيّة.

٦- الرّمسيوم: أحد معابد مدينة القرنة بالبرّ الغربي بالأقصر.

٧- نوو: أوّل آلهة المصريين القدماء، ويمثّله الماء.

٨- سورة (المؤمنون)، آية (٦٢).

٩- الجاثوم: حالة تحدث عقب الاستيقاظ تسمّى شلل النّوم.

١٠- سورة (يونس)، آية (٦٢).

١١- أسطورة خلق الكون عند قدماء المصريين.

١٢- كا: هي روح الميت التي تبقّى بعده عند قدماء المصريين.

١٣- حابي: إله النّيل عند قدماء المصريين.

١٤- أبوفيس: رمز الشرّ عند قدماء المصريين.

١٥- آبدجو: نوع من الأسماك لونه أزرق يقوم بمصاحبة مركب الشمس وحمايتها خلال مرحلة عبورها الليلي.

١٦- العالم السّفلي: هو العالم الذي تمرّ فيه مركب الشّمس خلال دورة الاثنتي عشرة ساعة أثناء الليل.

١٧- سِت: إله الصحراء والعواصف والظلام والفوضى في الأساطير المصرية القديمة.

١٨- أوزوريس: إله البعث والحساب ورئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين.

١٩- المسحور: خرافة أقصريّة.

٢٠- الأواني الكانوبية: استخدمها المصريون القدماء خلال عملية التحنيط لتخزين وحفظ أحشاء الموتى للآخرة.

٢١- حورس: إله مصري قديم، وعنصر من عناصر تاسوع أون المقدّس.

٢٢- ماعت: إلهة الحق والعدل والنظام عند قدماء المصريين.

٢٣- من برديّة مصريّة قديمة.

٢٤- سا: أحد خَدم مركب الشّمس.

٢٥- حو: أحد خَدم مركب الشّمس.

٢٦- التّاسوع المقدّس: يضمّ أقدم وأشهر الآلهة المصرية القديمة ممَن تدور حولهم الأساطير التي تتحدّث عن بدء الخلق والصّراع بين الخير والشّرّ.

٢٧- ساتت: إلهة الحرب والخصوبة والفيضان وحامية الجنوب المصري عند قدماء المصريين.

٢٨- خنوم: إله على شكل كبش عند قدماء المصريين، زوج ساتت.

٢٩- خنسو: إله القمر عند قدماء المصريين.

٣٠- أميت: أحد آلهة المصريين القدماء.

٣١- تحوت: إله الحكمة عند المصريين القدماء.

٣٢- أبيس: ثور يرمز للخصوبة عند قدماء المصريين، وكان يتوّج بوضع قرص الشّمس بين قرنيه.

٣٣- أنوبيس: إله الموت والتحنيط والعالم السّفلي عند قدماء المصريين.

٣٤- واجيت: أفعى خضراء، إحدى معبودات المصريين القدماء.

معشر الجن

أدهم العبودي موهبة استثنائية، لا ينافسه أحد ولا يقاربه أحد في موهبته، له عالمه بخصوصيّته الفريدة، فهو يمتلك لغة الصّور البصريّة، ويلتقط بعينه ما لا نراه.
بهاء طاهر – الأهرام

أدهم العبودي لديه ولع بوصف ورصد وتصوير بقايا الحضارات الغابرة والذكريات المقيمة المتعلّقة ببقايا تلك الحضارات داخل نفوس البشر وعلاقاتهم ومعتقداتهم.
د. شاكر عبد الحميد – القاهرة

يحاول أدهم العبودي خلق الأسطورة التي تؤرّخ لانبثاق الإثم في الكون، ليضع الشرّ وأصله تحت المجهر، لعلّنا نعرف، ولعلّنا نصبح أفضل إن عرفنا، وإن عملنا بما نعرف.
د. منير عتيبة – عالم الكتاب

الأسطورة تتجسّد أمامهم، تخرج من كتب الخرافات التّاريخيّة ومن متون الحكايات لتقلب عالمهم رأسًا على عقب، ثلاث بوّابات: مائيّة ورمليّة وجبليّة، تنفتح، ليسطو الشرّ على عوالم البشر، هل للطلاسم الطقسيّة العتيقة والسّحر علاقة باستبعاث الشرّ؟ كيف يمكن محاربة الجنّ وكائنات العالم السّفلي وجنود الظّلام وآلهة العالم القديم والمعبودات الحجريّة التي تبعث من الرّماد؟ ما هي التّعاليم والأسرار المقدّسة وعلوم التدرّجات الرّوحانية التي يمكن أن يستخدمها البشر في حربهم مع ممالك العالم السّفلي؟

أدهم العبودي

روائي مصري، حاز على عدّة جوائز منها: جائزة الشّارقة للإبداع العربي وجائزة اتّحاد الكتّاب وجائزة IREAD وجائزة إحسان عبد القدّوس وتنويه جائزة دبي الثّقافية. اختارته مؤسّسة L.P NEWS الشخصية العام الثّقافية في ٢٠١٧، ترجمت أعماله للعديد من اللّغات منها: الإنجليزية والفارسية والألمانية والفرنسية. له العديد من الإصدارات الرّوائية: متاهة الأولياء والطّيبيّون وحارس العشق الإلهي وبينما نموت وباب العبد والخاتن وغيرها. تدرّس أعماله وتناقش في رسائل ماجستير ودكتوراه في العديد من الجامعات العربيّة منها: جامعة المسيّلة وجامعة بجاية بالجزائر، وجامعة جنوب الوادي وقناة السّويس ومعهد السّينما بمصر، والجامعة الأمريكيّة بسوريا. تتصدّر رواياته قوائم الأعلى مبيعًا في المكتبات العربيّة، كما تمّ تكريمه في الكثير من المؤتمرات والملتقيات الدّولية.

